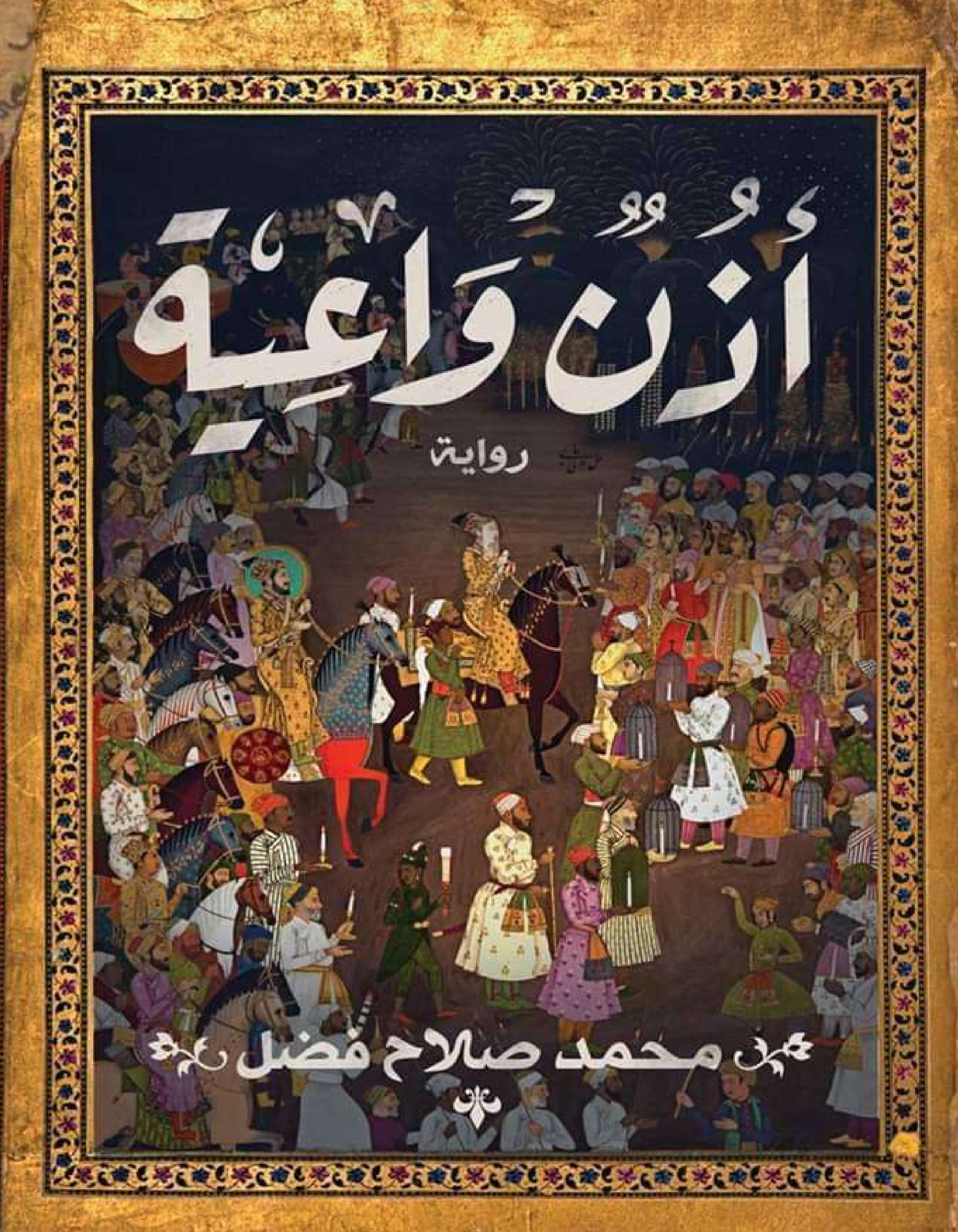


أُذُنٌ وَاعِيَة
رواية
محمد صلاح فضل

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشئون الفنية

فضل؛ محمد صلاح

أُذُنٌ واعية/ محمد صلاح فضل. - القاهرة: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع/ ط ١ / القاهرة: ٢٠١٦م.

٨٦ص؛ ١٤×٢٠سم

تدمك: ٩٧٨-٩٧٧-٦٥٠٢-٤٣-٧

رقم الإيداع: ٢٠١٥/٢٧٩٧٢

دار النشر: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: أُذُنٌ واعية

الكاتب: محمد صلاح فضل

رقم الطبعة: الأولى

تاريخ الطبع: ٢٠١٦

مراجعة لغوية: أحمد إبراهيم إسماعيل

تصميم الغلاف: كريم آدم

إشراف عام: محمد المصري



دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع

ت: 02 335864650 - 01149811100

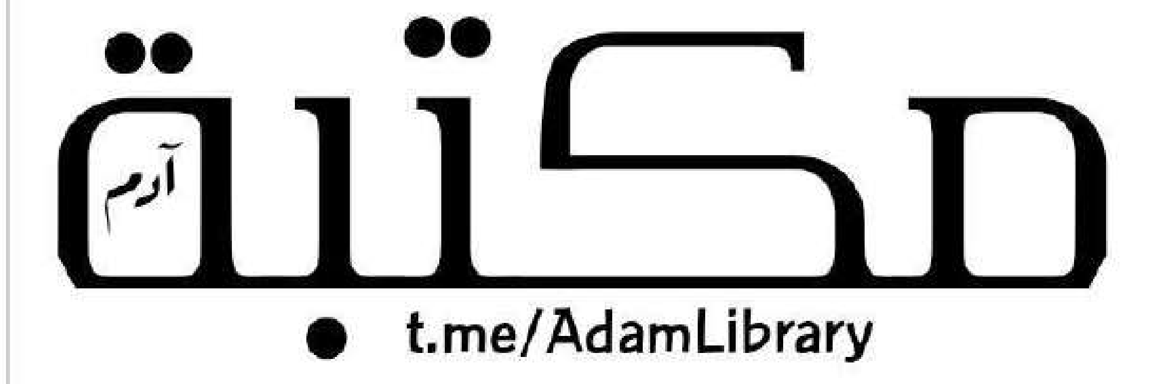
dar.elrasm.blklemat

أُذُنٌ واعية

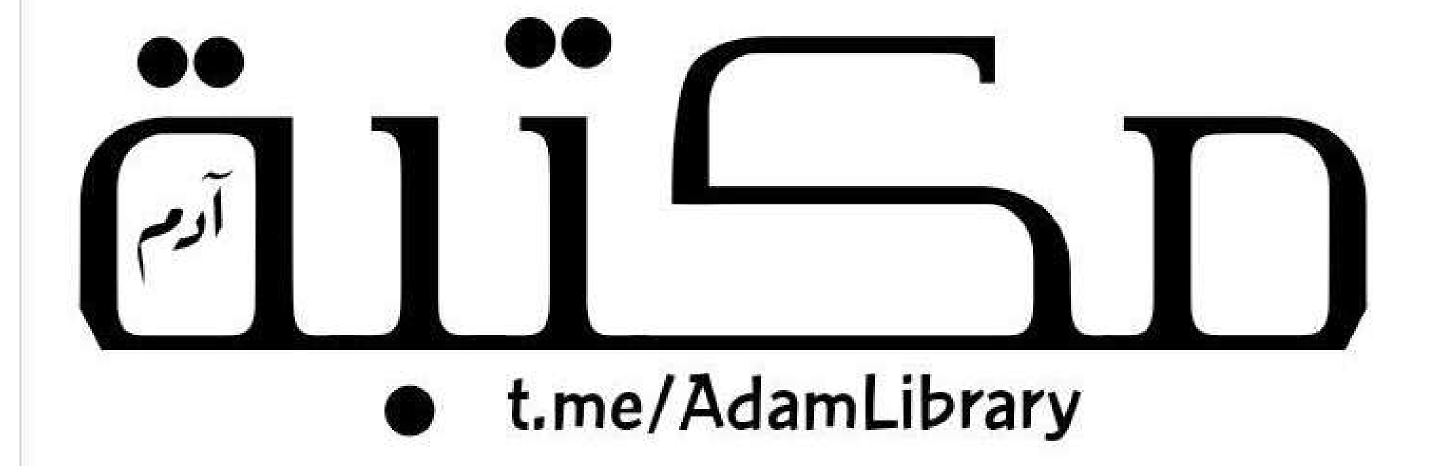
محمد صلاح فضل



2016


مكتبة
آدم
t.me/AdamLibrary

«لِنجعلها لكُم تذكرةً وتعيّها أُذُنٌ واعيةٌ»


مكتبة
آدم
t.me/AdamLibrary



إهداء

إلى نشوة العشق الرؤوم، وتوبة الفسق العتوم، وجلالة السر المكتوم، إلى قداسة الكاتم والكتمى، وتوبة الفاسق والفاسقة، وكل ما استشعره نشوان ونشوى وتراءى لأنفسهم السكرى ذات يوم..

محمد صلاح فضل



شكر خاص

للسيد المسيح، عيسى ابن مريم...

مُحِبك، محمد

■ ■ ■

المُبتدأ

«فهو ذا يأتي اليوم المُتقد كالتنور، وكل المستكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشًا ويحرقهم اليوم الآتي، قال رب الجنود»

(التوراة - ملاخي ٤-١)

■ ■ ■

«لأنه تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن... ولكن هذه كلها مبتدأ الأوجاع»

(الإنجيل - متّى ٢٤ - ٧,٨)

■ ■ ■

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾

(القرآن - القارعة ١ - ٥)

□□□

المُنتهى

«لأني هأنذا خالق سموات جديدة وأرض جديدة فلا تذكر الأولى ولا تخطر على بال» (التوراة - أشعياء ٦٥-١٧)

■ ■ ■

«وسيمسح الله كل دمعة في عيونهم والموت لا يكون في ما بعد، ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد، لأن الأمور الاولى قد مضت».

(الإنجيل - رؤيا يوحنا ٢١-٤)

■ ■ ■

﴿ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ (القرآن - الزُمُر ٦٩)

في كُلٍ منّا نور،

يتلوه هُدى،

فتكون توبة.

□□□

نور

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

مضت السنون عِجافًا، فتبعتها أُخرياتٌ ثكالى، أكثر قحطًا، وأدقع فقرًا، فقرٌ لم يعهده أحدٌ من العالمين قبلًا، حتى لحِقنا، إذ جاءتنا لحظات من الدهر كنّا نرتقب الرجل الذي يحمل بقلبه ثمائن الأخلاق، وكنائز الآداب، اسودت قلوب الناس اسوداد الليل الصحراوي البهيم، فلا قمر يضيئه ولا حياة تسكنه، أذكر حينها أن خرجتُ من بلدتنا قاصدًا الهرب، فبعدما هزل الجمع، وقل الرزق، انفلتت علينا الأوبئة تفتك بمن تلحقه، ولم نعرف لها عقارًا يُعيدها لقيدِه، ولا مربطًا يخنقها بغيضِه، وعاث الفسادُ برًا وبحرًا في أدنى الأرض وأقصاها، وملأ المشارق والمغارب .. ضمورًا، حينها رأيت المرأة تعلق بثياب زوجها الأهيف الهزيل متوسلة تستعطفه أن ينهض ليجلب قوت وليدِهما، والرجل يكفكف الدمعات الفارّات من مقلتيه، كان قويًا وضعيفًا، رأيت القوة في صلابته ورباطة جأشه، أن صمد على كل هذا طوال تلك السنين القاسيات، ولكنه ضعيف

.. فما لرجل أن يرضخ ويقعد مع القاعدين، ناظرًا لوليده الذي يحتضر جوعًا، حقًا حمدت الله أنني لم أتزوج، كنت أتوق للزواج، ولم أستطع إليه سبيلًا، أترى أن الله كتب لي ذلك، حرمني الزواج، كيلا يضعفني في هذه الأيام العصيبة، أمر الله النافذ، وما لنا من قرار، قُطّاع الطرق ينهالون علينا من كل حدب وصوب، فقط تعلن الشمس أنها ذاهبة، فينزل هؤلاء على رؤسنا، ناهبين القليل الذي نقتلعه من الأرض، والفتات الذي تبقى في مدينتنا والقرى المحيطة، هم ينعمون بما لا يستحقون، لا .. بل يستحقون كل شيء، فما عاد أحدنا يحمل سلاحًا إلاهم، أمر الله النافذ .. عذرًا حينما خرجت قاصدًا الهرب، رأيت أولئك الطغاة يكبلون فتاة كالبدر في تمام ألقِه، رأيتهم يكشفون سِترها، لم أرَ وحدي، الناس من حولي كلهم رائين، ولم يحرك أحدهم ساكنًا وكأن النبض قد خاصم قلوبَهم أو على رؤوسهم الطير، كانوا كالحمير، لا يحملون عقلًا فيعقلوا، ولا بصيرةً فيبصروا، ولا ضميرًا فيعدلوا، صرخات الفتاة العذراء صمّتني، نعم سكتُ، ولولا أن سكتُ لما كتبت، مبينًا ما كان، عصابة من العراة ملتفّون حولها يتموجون نشوة ولذة، وصرخاتها تنصب عليّ لتكويني، فيا لضعفي وتخاذلي، جعلتُها خلفي وعاودتُ السير، الطريق مظلمة والشمس ساطعة، أدركت أن محاجري أفضت ما بها فصدّت رؤيتي، ولولا أنها صبّت ما كنتُ لأرى، فمثلي لن يرى أبدًا، الإنسان يرى بنور قلبه .. ببصيرته، وبصيرتي حتّمت عليّ أن أمنع هؤلاء حتى يحول دون ذلك قتلي، ولكني تخاذلت، عظّمت نفسي البائسة، وروحي العابسة، علي تلك

البراءة التي تُنتزع زورًا، أمر الله، الضعف، لولا أنني ضعيف لوقفت، ولولا أن تلك الفتاة ضعيفة، لاقتدرت وتمنّعت، علمتُ من أولئك الذين فروا معيّ، أن لتلك الفتاة أبًا شيخًا كبيرًا مريضًا، يتملكه السقمُ بدارهم التي أدمتْ خارجه، سمعها تصرخ، فأبى إلا أن يصمّ السمع، ويغضّ الطرف ضعفًا، علم أن ذلك نازلٌ يومًا، ولكنه تناسى حتى وقعت الواقعة، الناس يهرمون كالدهر، والأعوام تنصرم حامدةً بارئَها أن قضت أمانتها وغابت في جُب بلا قاع، الآداب تتدثر بغبر الخبائث، وتندثر الأخلاق والفضائل كفسيلةٍ ببورٍ مَهْدُها، مررت تاركًا خلفي ذاكرتي، فطالما عاقتني أن أستمر، رأيت فتاة أخرى .. وأخرى .. وأخريات، جاوزتُ الشهور مشيًا وجاوزتني هرولةً، ورأيتُ العجب العُجاب، الناس يتلهّون بالجرائم عن قحط عَيشهم، الناس يتدنّون بسرعة السيل من علي، ومن كان ذا فضيلة قتلته فضيلته، أو أودى به ضعفه! نسي الناس أن يقرأوا، فراحت الكتابة صاحبة القراءة، جفت الأقلام .. ورُفعت الصُحف آنها إلا قلمي وقرطاسي، حطت بي قدمي لنهر، فاستأويت به شهرًا، أخرجت قرطاسًا أدوّن ما جرى، دوّنت ما كان من أمر المغصوبات، وأمر الرجل القوي الضعيف، وما كان في الشهر المهرول من فضائل ببورٍ، لم أكتب في اليوم إلا بضع كلمات، حال ضعفي دون ذلك، أيقنت حينها أنني هزيل، لا فائدة.. فقط زائدٌ على تلك الحياة التي طالما أبغضتها وأبغضتني فيها، رأيت نور الله في قلبي كاد أن ينطمر، إلا انني أمسكت بفلتاته، تحاملت على نفسي شادًا إياه لأعلى، فأبى وانطمر كله أبدًا، كان حلمًا

غيّرني، رأيت رجلًا يدّعي أنه الباحث، كان يشبهني تمام الشبه حتى ظننته أنا، لكنه كان قويًا حكيمًا، نظر إلى وجهي النحيل، ثم ألقى عليّ بكلمات أبدًا لم أنسها من بعده..

قال.. «نور الله لا يُهدَى لعاصٍ» أدركت حينها ما النور، وكيف أنه لا يُهدَى لعاصٍ، تركت الكوخ الذي آواني في ضعفي من خلفي، قاصدًا مسعاي.. أن أجد نور الله، كنت أتعبد راجلًا، وقاعدًا وعلي جانبيّ، كان لساني رطبًا دائمًا وزهدت الحياة، فخَفَتَ طلبي للدنيا وشقائها، فما كان ذلك آن نعيم قط، حتى أولئك الذين أرغموا الفتاة لم ينعم أحدهم، بل ركبهم الشر فتملك منهم، وأوصد قيود قلوبهم فانحسروا في غمرتِها، وتعلق بتلابيبهم فاختنقت أعناقهم وما يشعرون، رأيتُ الله في خلقه، ورأيتُ نور الله في عظمته، ورأيتُ قُبحنا في غرورنا، ظننتُ يومًا أنني أقوى أهل الأرض، فجاءت تلك الاعوامُ بما فيها، علمتني أنه لا يوجد أقوى من القدر الذي هو جند من جنود الله، أمر الله .. أمر الله القوي .. أمر الله النافذ، ارتحلتُ في الجبال وارتحلت فيّ تبُثني ما فيها، فغالبتني حمى حتى غلبتني، غِبت عن الوعي يومًا أو بعض يوم، ربما أكثر .. فأولئك الذين وجدوني وطببوني لم يخبرني أحدهم كم لبثتُ، فأدركتُ ضعفي وقلة حيلتي، لولا أمر الله وفضله ما جئت لتلك الجبال، وما غالبتني حمى، وما جاء القوم ليطببوني، الأمر أشبه بالدمى تتحرك حيث يشاء صاحبها، وهي تظن في نفسها أنها صاحبة القرار، وأين القرار في كل ما كان، هل كان قرارًا أن أهجر موطني مودعًا إياه أبدًا، وأن أترك

الفتاة للذئاب، أمر الله .. لما أفقتُ أخبرتني تلك الفتاة أن والدها علمها الطب مذ بادئ الأمر، وأنه أخبرها يومًا، أنها ستتزوج من رجل أسمر تجده أمام دارها راقدًا يتحسس الخطى لطبِها، كدتُ انطق إلا أنني سرعان ما أطبقتُ فمي واتخذتُ وقتًا لأدرس قولي، ثم أخيرًا .. أخبرتها أنني لم أُرزق تأويل الرؤى، وتحاملتُ على دواري، وقمت خارجًا فأوقفتني الفتاةُ بقولها، أنني إن خرجت من البيت ربما تعاودني الحمى من جديد وحينها سأكون قد تجاوزتُ منطقة البيوت، شعرتُ بوجوم وجهي، تلفتُ أنثر النظرات فيما حولي، رأيتُ أرضًا رملية، وأبوابًا خشبية مهترئة، تفصل الغرف التي تُشبه الأنفاق القديمة، أدركتُ أنني داخل أحد تلك الجبال التي سقطتُ أمامها منذ أيام، وأدركتُ أيضًا أن الفتاة لم تطلب مني تفسير رؤياها، بل كنتُ أنا مُحقِق رؤى أبيها، أمر الله .. القدر يقتادنني دونما حول مني ولا قوة، القدر يشعر بي .. الله يصرف القدر حيث يشاء، الله أقرب لعباده منهم، استغرقتُ قليلًا أفكر، الفتاة على حقٍ .. والحقُ بالإتباعِ أحق، إن خرجتُ ربما لا أجاوز الجبال قبل أن يعاودني السقم بل وربما يشتد عليّ، يا الله لِمَ خلقت السقم، ونحن الأشدُ ضعفًا بدونه! الله خلق كل شيء بقدر، ربما خلق السقم ليُشعر الغُرور الغَرور أنه ضعيف، ما إن يغالبه مرض خفي لا يراه حتى يغلبه، فيقعد مذمومًا حائرًا حتى يبرأ بأمر الله، ثم يعود لبطشه العتيد وطغيانه المديد، كأن لم يصبه ضُر من قبل، مثله كمثل الذئاب، أظهروا قوتهم في فتاة مسكينة، يا ليتني أقدمتُ على غير السكوت، فكان منهم

خنجرٌ أرداني قتيلًا، ربما كانوا يعودون للفتاة من بعدي، ولكن ربما استطاعت الفرار حالما ينتهون منيّ، كنتُ سأبرأ بالتأكيد من سقم الدنيا، فلا أعود لبطش أبدًا، الله بصيرٌ بعباده .. وهو بهم رحيم . حسنًا يا فتاة سأجلس بضعة أيام، وما إن يتم الله شفائي على خيرٍ منه وفضلٍ حتى أذهب، قلتُ ذلك.. فتهللت أساريرها، وانفرجت .. وتحمرت وجنتاها، الفتاة تثق في رؤى والدها كما لو كان نبيًا، الأنبياء جاءوا في وقت كهذا، وقد خيم الظلام على العالم وأعمل نابيه في عنقه وبراثنَه فحرروه، ولما تحرر العالم بطش بهم، الأنبياء كانوا أقوياء، لم يضعف أيهم أبدًا، إلا لحظات معدودات، وكان الله بهم عليمًا، تركتني الفتاة، لأهنأ بخلوتي، قد اشتقت للصلاة، صليت كثيرًا حتى خيم الليل الذي طالما يذكرُني في وحشته، فيُذَكّرني بوحشتي، ووحشة الكون من حولي، فقد استحال الكون غابة في أعوام قلائل، أمر الله، استويت أرضًا وبحثت في جوف عباءتي عن قرطاسي، واليراع ومحبرته وواصلت البحث إلى جوفي عن منطوقٍ يُقال، أو مكتوبٍ يُخط .. وأمل، فتعثر عليّ أن أجد الرقوق، انفعلت قليلًا، الحق أنني لم أرد أن يقرأ شخص كتاباتي، ففيها أنا، ولا يسع الإنسان أن يعيش مرّتين بين الناس، مرت لحظات ألهمني الله فيها أن أنظر بجوار الفراش الصغير الذي كنت عليه، فوجدت ما أفقد، التقطته، وشرعت أكتب حتى كلّ متني، فلما كلّ متني، كلمتني الفتاة من خلف حجاب، إنه الطعام، لملمت شتاتي في رقوقي، ثم أذنت لها بالدخول، كان الطعام شهيًا حقًا، ولكنني كدت

أنسى أنني زهدت الحياة، التقطت بضع لقيمات يُقمن صُلبي، ومن بعدهن أبعدت الطعام، وانتبهت للفتاة سائلها عن والدها، رأيت الحزن جليًا بين قسماتها، ألقمتني الصمت، منتظرًا الكلماتِ العالقةَ بحلقها، أشاحت بوجهها عني، وأخبرتني أنني فقط ما تبقى لها منه! وأتبعتها بذلك تأويل رؤيا أبي من قبل، قد جعلها ربي حقًا، كلمات الفتاة كانت صادقة .. وصادمة، الصدق يرممُ الأحرف ويجعلها أكثرَ ثباتًا، لا يخرج حرف منها لمسامعك إلا يُشعرك بأن العالم بالخارج إن وصل لتلك الفتاة لكان مصيرها كاللائي سبقنها، والصدمة تكمن في أنني قد زهدت كل هذا، فقد عافاني الله من كل الملذات، ورحمني بأن صدّني عن الشهوات وخطوات الشيطان، أخبرت الفتاة أني باقٍ، لمّا رأيت في استجدائها الخير، أمر الله .. الأيام تمر، وكل يوم تتعلق الفتاة بيّ بغير حول مني، وأنا أتعلق بها وأرجع لأتوب، لم أدرِ يومًا لِمَ أتوب عن حبٍ، وما الذنب في الحب حتى يستوجب التوبة، الحبُ! قرأت عن الحب من قبل في الكتاب الذي هُجِر، والقلب الذي فُطِر، والمصائر التي تسترّت بالذكرى، قرأت عن الحب في القرءان، لا أحفظه كله، ولكنني أحفظ منه، رأيته في موطنٍ واحدٍ مكتوبًا، تلك الفتاة قد شغفها حبًا كما شغف امرأة العزيز، وما أنا بيوسف، وما لها من زوج، فلمَ قد يتملكها حبي، هل لتحقيق رؤى أبيها الذي تحبه، الحب وقع ذنبًا ووقعت فيه، والفتاة تقترب كل ليلة بلا رادع، حتى سيأتي اليوم القاطع، الذي سأذهب فيه باحثًا، ولربما تقتل هي نفسها، لا .. لن تقتل نفسها، ستنسى أنها قابلتني، وستنتظر تحقيق ما

وعدها به والدها، ربما لم يعدها والدها هذا أبدًا، ربما تكذب الفتاة، ولكن ما فائدة كذبها ؟! يا الله يا رحيم .. ارحم قلبي المشتت وعقلي التعِس، ألهمهما أن يحبا دون عناء، لا أعرف سبيل، ولكنك قدير يا الله، الحياة مليئة بالمصاعب، وتلك الفتاة إحداها، سأمضي دونما وَهَن .. ذاهبًا لمقصدي، سأشكرها على ضيافتي كل تلك المدة، وأنها سمحت لي برؤية ضعف العاشقات، وأذهب.. يا ربي.. ساعدني، أخرجتُ قرطاسًا جديدًا وكتبتُ.. «الحب أصل الوجود .. والوَجَد» جاءتني الفتاة بعباءة جديدة أخبرتني أنها كانت لوالدها، امتنعت أولًا ولما أصرت وجدت في ذلك حجة أن أقبلها فلقد اهترأت عباءتي وذابت، أخذتها منها وذهبت ناحية الخلاء لأبدلها، ولما أمنت خلعت ما يسترني وقبل أن أضع الجديدة عليّ، اخترقت الفتاة حصني، نظرت فيّ نظرات لا تخرج من بريئة كما عهدتها، اقتربت مني، فسترتُ عورتي بكفيّ، حاولتْ لمسي، فانتفضتُ كالملدوغ معنفًا إياها، فخرجتْ باكية، وضعتُ عباءتي القديمة على بدني الأهيف الهزيل ومضيت نحو الفراش أخرجت قرطاسًا صغيرًا كنتُ قد اقتطعته من آخر كبير، وكتبت في منتصفه بخط جلجله الإغواء فثبته الإيمان.. «وما النور إلا في مخالفة النهى» لملمت حاجياتي وانقلبت خارجًا، وقفتْ منكسة الرأس محاولة منعي، حاولتْ مرارًا دونما جدوى، فلقد عزمت، ألقتْ بذاتها تحت قدمي، صرختْ وانتحبتْ وذهبتُ، آويت بعد مسيرة أربعة أيام لكهف قديم تسكنه الأفاعي، رأيـــــت في الأفـــاعـــــي أنـــسًـــا، فـــالأفـــعـــى

لا تُبادئ بالأذى كما الفتاة، وأي أذى أرادته الفتاة لي، الفتاة أحبتني لا غير، ولكنها لم تقدر أنني تُبت، مما تُبت، ربما كنت أتزوجها ولكنها لم تصبر، هي ضعيفة فقط، الضعف يهوي بنا دائمًا في الجحيم، الضعف هو الجحيم ذاته، دوّنتُ كل شيء، دوّنتُ حتى لا أنسى، كانت الأفاعي تحوم حولي في الليل فأخالها تحاول لدغي، وهي تحميني من أي هجوم وتزود عني، أدركتُ حينها أن الإنسان الذي لا ينصر الضعيف الأعزل، لا يستحق العيش، بل يستحقه .. ففي العيش شقاء، وفي الراحة نقاء وبهجة، عدتُ لرحلتي صباح اليوم السابع، ولما اشتد الحر وقست الشمس عليّ، آويت لأيكة كبيرة أستظل بها، غفوت قليلًا.. فوجدتني فوق جبل شاهق، أنظر للعالم من أعلى وهم يسجدون لمُدّعي، فزعتُ.. فرُدت إليّ روحي، الفزعُ مِفتاح الحياةِ والموتِ، وجدتُ فرعًا كبيرًا من الأيكة ملقى أرضًا كان أشبه بالعصى، أخذتها أدافع بها عن نفسي، ولربما كان لي فيها مآرب أخرى، ارتحلتُ لمّا عقد القيظُ هُدنةً وانسحب، حتى وصلت قرية قالوا إن أهلها لا يؤثر المرض فيهم، أخبرتهم أني ناجٍ من قومٍ يقتلون الأبرياء، ويغصبون الضعيفات، فرحبوا .. ونزلت فيهم راضيًا عنهم وراضين عني، مرت الأيام، والشهور ولا أخرج لهم، لقبوني بالمعتزلِ، جعلت من بيتي الذي أعطوني إياه صومعة للتعبد، كانت حياتي لله، الصلاة والذكر وقراءة ما تبقى في صدري من الكتاب المرفوع، حتى لا يُرفع من صدري أيضًا، يومًا زارني رجلٌ هرِمٌ أخبرني أن ابنه يعوقه، فعجبت له وقلتُ وما الذي دفع بك إلي، أخبرني أن القوم

بالخارج يحتفون بقدومي، ويقولون في حقي أني رجلٌ ربما يواجه القحط بالخارج فعجبت له، إذا كان باستطاعتي مجابهة الخارج لِما أويت إليكم إذًا، مالكم كيف تحكمون، قلتُ له، أخبرني أنهم يرون فيّ الشيخ المنتظر، يسمعونني أقرأ القرءان الذي لا يحفظه أحدهم، يتباركون باسمي كأني رسول كريم، أخبرت الرجل أن يأتيني بابنه، فجاءني به وطفلٍ صغير، داعبت الطفل سائلًا إياه ما اسمك، فنطق باسمه كاملًا، فوخزت الشاب في جنبه وأنا ابتسم، وقلتُ.. واحسرتاه، إن شب الطفل على غير بر والده، وشاب الشابُ على غير رضا عن ابنه، فانتبه الشاب والجد الكهل، وفهم الاثنان إشارتي، تبارك الجمع باسمي من بعد، فكان الشاب أكثر برًا بوالده، من أهل القرية جميعًا، علمت من الهدايا التي انهالت على صومعتي وزيارة المرضى وعيادة المهنئين أن الكهل هذا كان حاكم القرية، مرت أيام قلائل قبل أن أعيَّن شيخًا للقرية، ثم كُسرت فرحتنا، لما علمنا بظهور رجل يدّعي أنه نبي، لم يكن بيننا، ولكن الخبر كان يتناقل سريعًا كأن الرياح تحمله فرحًا ببعث رسول جديد، أولم يكن محمدًا خاتم المرسلين، آمن العالم بالرسول الجديد حتى قريتنا، حينها اعتزلت القوم على سفح الجبل الذي رأيته من ذي قبل حاملًا العصا التي أخذت أدبب حدها بعدما أوثقت به حجرًا حادًا، وقفت أنتظر وأنتظر، ولا شيء آخر..

مرت أشهر .. ولم أذق طِيب الزاد، ولم أرتوِ إلا غرفة أو اثنتين في اليوم، تملكني الهَزَل وزاد جسدي ضعفًا على نحوله، إلا إنني أمضيت تلك

الأشهر متعلمًا، وقضيتها متقربًا، بحثًا عن النور في مخالفة النهى، بحثت عن حب الله العظيم، اعتزلت الناس كافة، والأكثر صدقًا فيما فعلت أنني لم أخبر أيهم بمكاني، فصرت نسيًا منسيًا، لم أخبر إنسيًا بسُكناي، دوّنت كل ما مضى وما سيأتي ويمضي .. دوّنتني على الصفحات، وكتبتني بين الطيات كي لا أموت ما دامت الحياة، الحق أنني لم أرد الحياة طمعًا فيها، بل رسالةً وحبًا ورغبة في المكوث أطول، لِبَنيّ من بعدي وإن لم يكن منهم من صُلبي وترائبي، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون، وذلكم مما علمني ربي، فما يروق لي أن أكتمه بجوفي حتى يقضي الله في شأني أمرًا كان مفعولًا، ماذا وإن متُ وضل واحدٌ مثلي، إن لم تكن تلك نهاية العالم، فالسنون القادمات أكثر تقشفًا ومرضًا، أمر الله .. يا الله ..لقد انزويت بعيدًا، أبحثُ عنك فيّ وفيما أرى، فلا تردَني غضبان أسفًا يا الله، لولا نقطة من نور ألقيتها فيّ ما كنت لأفعل، ولولا فعلتُ ما كنتُ من الفائزين يا ربي، كتبتُ كل شيء .. كتبتُ آيات من القرءان، كتبتُ في تلك الأشهر العمياء، كل ما يمكن أن تبصره من بعدي، فتنجُ بأمرك، وتُفلت بشأنك، الله .. كل يوم هو في شأن، يا الله .. كن في شأني وانظر لضعفي وقلة حيلتي وهواني على الناس، إني أموت شيئًا فشيئًا، لا أطلب الحياة، ولكنني أطلب العون، لا أطلب إطباق الأخشبين بل آذان قباء، فلعل ما تبقى لي من عمر يشفع لي، ما مضى منه، الله أكرم الأكرمين، ردني بعدها لعمر، أتممت فيه رسالتي لأقوام يأتين من خلفي، فيسيرون على دربي، يومًا كنت أتضرع ليلًا، فأبرق في النواحي برقًا ملتهبًا، وتبعته

أصوات الرعود المغتاظة، يبدو أنني تلهيتُ البارحة عن ذكر الله، فأراد أن يخبرني أنني أسهو كثيرًا مذ أيام، ومع البروق والرعود، استمعت لتلك الأغصان التي، وضعتها مرسومة على حواف سفح الجبل، تتهشم، لتُنبأني بأن أحدهم اخترق عزلتي، أمسكت بعصاي، وانتظرت .. تخفيت وراء صخرة أعددتها لذلك، وتتبعت خطى الغريب، حتى ظهر في مرماي شاب يشبهني كثيرًا، فتجليت له، فأمسكَته رهبة مني، فطمأنته وسألته عن سر مجيئه لهنا، أخبرني حينها كلامًا كنت بحاجة لأن أعرفه، لقد دوّنته عندما رحل، و ياليته لم يرحل، قال إن الناس قد ضلوا، واتبعوا من لن يزدهم مالهم ولا ولدهم إلا خسارًا، وكروا مكرًا كبّارا، اتبعوا رجلًا في بادئ الأمر عرفوه بالصلاح، ومن ثم ادعى النبوة، والنبوة لا تلقى في قلوب الصالحين فقط لأنهم صالحون، وبعدها .. وحينما أدرك أن الناس تقدسه، لأنه رفع عنهم القحط الذي يعيشون فيه، فقد ضرب الأراضي بيمينه فأنبتت زرعًا طيبًا مباركًا، ولكنني رأيته خبيثًا، ونظر للسماء رافعًا يمناه لها، فأمطرت حتى ارتوينا .. سقيا رحمات، رأيتها سقيا عذابات لا محالة، وبعدها اعترضه بعض الناس فجاء بأحدهم رافعًا سيفه، فأخذه منه وشقه نصفين، فارتاع الناس، وفرّ بعضهم، والبقية وقفوا واجمين، أعاد السيف فى عكس حركته، حركه من الأسفل للأعلى فالتحم لحم الرجل في لحمه، وكأن شيئًا لم يكن آمن الناس أنه رسول يأتي بمعجزات، ونبي كريم، وبعدها تأله، وآمن له الكثير، وأكثرهم كانت النسوة اللائي يبحثن عن قوت أطفالهن، وقوتهن أنفسهن، النسوة لا يعقلن يا

شيخ، هكذا قال .. أمسكت بأطراف الحديث، وأخبرته أنني كنت قد اعتزلت الناس وجئت فقطعت عزلتي، ولولا أن جئت ما فكرت في الناس وحالهم، هنا لدي من الماء بركة أرتوي منها، تجمعت منذ أن أمطرت، وخشاش في الأرض أطعمه فيسد عني بعض الجوع، يقوييني على العبادة، فما ألذ العبادات والطاعات في أوقات الشقاء، وما أكبر أجرها، حتى يا ولدي و إن هبطت معك عليهم فلن يستمعوا، وحينها سأخسر كل شيء، أنا هنا أتم رسالات أقوام من بعدي، قاطعني الشاب أن قال أية أقوام تلك من بعدك، أأخبرك بأن رجلًا تأله وتخبرني بأقوام من بعدك، يا لك من غافل، انتبهت لكلمة غافل، الغفلة أن يترك الإنسان أموره تصرفها الرياح ويغفو، ولما يفيق ويُرد إليه وعيه، ينظر لحاله، فيرى كيف بدلته الرياح، وغيره القدر، يمكن أن ينصاع للقدر دونما غفلة .. فقط ينتبه، أنا حقًا غافل، قلتها له فابتسم، ولن أهبط عليهم حتى أفيق، ألقيتها عليه فأوجم ورحل ممتعضًا، الحق أن هذا الشاب كان يبحث عن الخير لأمته مثلي، لا ولكنني أبحث عن الخير لذاتي، وهل هذا هو النور الذي أبحث عنه ؟ ربما بعدما أجده، أدونه لمن بعدي، ومن سيأتي بعدي ليجد تلك الرقوق ويقرأها، وكيف ستعيش تلك الرقوق العقود القادمة، الله خيرٌ حافظًا وهو أرحم الراحمين، حقًا الله كذلك .. وصدقًا آمنت بذلك يا ربي، لا أكاد أختلف مع نفسي، حتى تأتيني الإجابات من باطني، بدأت تدويني بأن عنونت الصفحة المرجوة، " وما العلم إلا في الخلاف وسِرِه " فما العلم إلا في الخلاف، وما علم الإنسان منذ الأذل شيئا إلا حين اختلف

مع غيره، فالخلاف يُنشئ أولويات البحث، ويضع النظريات والقوانين والمبادئ، ومن ثم يأتي العلم.. الذي هو نور، الذي أرجوه باحثًا يا ربي، فهبني ما أرجو، عدلت عن التدوين بعدما اغتمت نفسي، فرأيت فيها اسودادًا لم أره من قبل، النفسُ اللوامة طفلةٌ لا تهدأ ثورتها بغير تلبيةٍ، وعجوز لا ترضى بغير السخط على رعونةِ الصغارِ، النفس اللوامة غير، أخبرتني نفسي بهذا ولامتني أن تركت الناس يضلّون بالأسفل، وأنا هنا أتلهى ببعض القراطيس، جاهلة أنتِ يا نفسي، فما التدوين تلهي، وما أنا هنا لأغفل، كلا بل أنا غافل، وإن كان التدوين صدقًا بغير لهو!، عند الصخرة الكبيرة التي أتخذها ملاذًا رأيت فأرًا صغيرًا، يشمشم الأرض باحثًا عن مأكل، كان نحيل الجسم أهيفه، اقتربت منه ومددت له يدي بكسرة من خشاشي، فعض إصبعي، انتفضت ساحبًا يدي لأعلى وضربته بقدمي، فأرديته، أعلم أن الفئران لا تهاجم البشر لأنها تهابهم وتخافهم، فما بال هذا الفأر عن عشيرته يخرج ويضل، حدثتني نفسي حينها أنه لم يضل، بل اعتصره الجوع فقرب إليه الموت، فكان أكثر هوانًا عليه أن يموت، ذلك الفأر أقدم على فعلة أودت بحياته لينجُ من آلام الجوع، ذلك الفأر فعل ما لا يفعله غيره من نسله، لأن الجوع أذهب عقله، أدركت حينها أن الله بعث لي الفأر ليعرض مشهدًا كنت عنه بعيدًا غافلًا، الناس بالأسفل يؤمنون بأن هذا المتأله سيخلصهم من عنائهم، فلمَ لا يشهدون له بالربوبية، إن كان سيطعمهم من بعد فقر، ويحنو عليهم من بعد قحط، ويسقيهم من بعد عطش وجفاف وتقشف ذهب بأرواح الأحبة

والأصدقاء والصالحين، حدثتني نفسي حين قلتُ الصالحين، أنه لم يكن بين أولئك الناس صالحون، كلهم طالحون لا محالة، رددت نفسي عما بها، وحملت مخلاتي وبضع أفكارٍ أُوقِد تحت مِرجلِها الشبابُ، مقتربًا لحافة الجبل، وبدأت رحلة جديدة قبل ميعادها، لم أحلم يومًا مذ صعدت الجبل، أنني سأهبط ولو بعد أعوام إلا لجلب الزاد الذي يقيم صلبي، ليمنحني القوة، لأتعبد متِمًّا رسالتي، حدثتني نفسي أنني أتعبد وأنا ذاهب لأصحح من مسار الناس، ابتلعت الكلمات، وسكتُ فلم تصمت نفسي، وقالت «حبُ خلقِ الله من حبِ الله» فقلتُ أشهدك يا الله أنني أحب خلقك، وأحبك بحجم ما خلقت، تنفست وبدأت رحلة شاقة لرجل مثلي قد ارتخت عضلاته ولم تعد قادرة إلا على المشي، ثم أجيء طالبًا منها نزول جبلٍ كهذا، أمضيت أيامًا أهبط الجبل، أهبط نهارًا وأبيت الليالي القاسيات بين تعريجات الجبل غير عابئ بما تُخفيه ليّ تلك الطية، على أية حال قد أمنت الأفاعي، فهل لشيء أخر لا آمنه بعدها، وأخيرًا بعد بضعة أيام، هبطتُ الجبل لأرى ذلك الشاب ينتظرني بالأسفل، تهلل حينما رآني وأخبرني أنه علم أنني سأفعل، ربما تأخرت قليلًا، وقد توقع قدومي مبكرًا، ولكنني في الأخير فعلت، حمل عني مخلاتي، وترك لي تلك العصا أتوكأ عليها، أرشدني لطريق القرية، وكأنني نسيتها، تلك القرية التي آوتني بعد تشرد وضياع، ذلك الرجل الذي كان ابنه يعوقه، وحسب أنني هديته، إلا أنني فقط بإلهام من الله أخبرته في إشارة موجزة عن مصيره القادم، إن عاق والده من جديد، فاستمع الشاب والتزم،

بغير رجعة لما كان عليه! وقفنا على أبواب القرية، فرأينا كل من فيها يبنون التماثيل لشخص واحدًا، الكل متضرع له .. الكل يسجد بعينيه الدامعتين، قبل أن يسجد بجسده المتزن، فتلك القرية لم يصبها قحط كما القرى بالخارج، فما بالهم، يؤلهون مدعٍ! أجابتني نفسي أن ليس كل الناس فئرانًا، بل هناك الغنم .. يتبعون القطيع بغير فطنة ولا علم، فتجلّى لي أن تلك القرية هي أهونهم، وهي الأيسر في أن تُرد لما كانت عليه، دخلت عليهم الباب فأوجموا، ولما تذكروني تهللوا وتركوا أصنامهم تلك وصدوا عنها، وجاءوا يتباركون مني، عجبت لهم .. فما أنا إلا صنم حي، ردّهم عن صنم حجري، صرخت عاليًا يا قوم اتبعوا المرسلين، فتذكر بعضهم وانصرفوا لدورهم متحسرين، وأعرض آخرون وانصرفوا خاسئين، وبقيت ومن بقى أذكرهم حتى تذكروا، وأعرضوا عما كانوا عليه، وهدّموا الأصنام، وأوصدوا الأبواب، بعدما خرجت مع الشاب باحثًا عن أقوام آخرين..

في طريقنا، مررت بمكان كنت قد رأيته من قبل، خفق قلبي خفقان المُنذر باقتراب الشر، كان كل الشر في أن أراني من قبل، أن أرى ضعفي الذي انطمر واندثرت أيامه، وأرى حيرتي التي ذهبت وراحت سويعاتها، إلا أنني في تلك الأراضي رأيت كل هذا، في هذا المكان، كنت عاجزًا وما بي من علة، أفضيت من مدامعي ما غسل عني بعض همي وطهرني، من بعض قبحي، وكل شر نفسي الآثمة، تلك الفتاة .. مالتلك الفتاة لا تغرب عني أبدًا، والغروب أجمل وأشد هيبة، أمر الله .. وما الله بظلام للعبيد، إن

الله ليمحصني حتى أستبين على حقيقتي، يا ربي أنا قد اعتزمت التطهر، فطهرتني من دنسي، ورفّعتني عن آثامي وأخطائي، فاعف عني يا الله، إنك أنت العفو الكريم، رمقني الشاب بنظرات اختلسها، ولكنني كنت قد فرغت من نفسي منتبهًا إليه، فعاجلني بسؤاله، عن حال أدمعي، فأجبته بالصمت هنيهة، قبل أن أكتفِ بجملة، أن يا بني، الدمع النقي، يطهر الدنس، ويغفر الآثام، ويُهدئ روع الطفلة العجوز بالداخل-قلتها مشيرًا لصدري- فلا تبخل به على نفسك، فلكم أخطأت، والله إني لولاك إلى جانبي لانتحبت على حالي، هذا المكان بالنسبة لي، جحيم مُسعرة نيرانه، أنهيت كلماتي والتفت باحثًا عن بيت الرجل المريض، بيت الفتاة، يا الله أطرد عني هاجس تلك الفتاة للأبد، كانت الدار كما هي لولا تلك النيران التي أرغمته على الإنهيار، النيران زالت، ولكن آثارها لم تزل متضرمة، الأحجار السوداء والرماد المفروش في كل مكان، هل قاوم الأب ذات مرة أولئك الخنازير فنكّلوا به، أم مرَّ المُتأله من هنا، فكفر به الأب وابنته فمزقهم شر مُمزق وفعل بهم الأفاعيل ليرسخ في الناس أنه على كل شيء قدير، الناس حمقى .. يصدقون الظاهر فقط، يحكمون بما تجلى لهم، وفي الستر والخفاء العلم كله والحكمة، الناس جهلاء، يتحدثون دائمًا بالقوة ولا ينتبهون للمتعقلين الرحماء، فما القوة أن تقتدر على أعجز وابنته، ولكن القوة كل القوة أن تعفُ عن شيخ وفتاة، قاطعني الشاب أن علينا التحرك فانصعت له متذمرًا، بعدما أخبرته ألا يعود ليقطع خلوتي من جديد، حتى وإن سقطت السماوات علينا، نزل الشاب على

حكمي منزلًا كريمًا، أمر الله .. هذا أمر الله أن يظن بي الناس، الصلاح، فيلجأون لي في الأفراح والأتراح، الناس دائمًا يحتاجون أن يطمئنوا، فإذا ما وجدوا ذلك الذي يبعث إليهم بالطمأنينة، يفتأون يرجعون إليه عن علنهم ونجواهم، الناس يحبون ظن الخير بالناس، حتى يأمنوا، تحركت مع الشاب، حتى بلغ الإرهاق أخمصنا، فآوتنا بحيرة صغيرة، يقربها كوخ خشبي-لم يمانع إيواء ابنته للأغراب- يوشك أن ينقضّ، أقامه الشاب ثم دعاني إليه وخرج باحثًا عن زاد، ما لبثت أن ولجت الكوخ حتى أخرجت محبرتي و يراعي وبعض الرقوق ودوّنت منذ القرية وحتى الكوخ، انتهيت سريعًا وجثوت على ركبتي، أدعو الله أن يدبر ليّ فإني مرهق الحس ومشتت الفكر، لا أشتمُّ الصالح من الطالح كما كنت، النور يتخبط في قلبي باحثًا عن مخرج، لابد أنه ثمة خطب ما يحدث، دعوت الله وصليت حتى جاء الشاب، استأذن الدخول، أذنت له .. فولج حاملًا فوق رأسه وعاءًا يحوي الكثير من الفاكهة وزجاجة من الماء العذب النظيف الذي ربما كدت أنسى مذاقه، سألته عن الخير من أين له به، فأخبرني أنه مر على قرية استطعم أهلها فأبوا أن يطعموه، فأخبره أنه خادم لشيخ جاء لمجابهة المتأله، فأعطوه مما يملكون دونما حد.. ولا قدر، فامتعضت .. وكدت أقذفه بما جاء به، إلا انني كظمت غيظي وآثرت الصمت، ثم سألته عن طريق القرية فأرشدني، قمت متأففًا وانتشلت منه ثمرة كان قد التقطها ليقضمها وأعدّتها للوعاء وحملته للقرية، هناك ظن الناس أنني جئت للمزيد فجاؤني به، فأبيت إلا أن يأخذوا رزقهم

و يتركو ني وشأني فرفضوا، وأجلسو ني دار ضيافتهم وأمّنو ني على كل شيء يمتلكون، الناس أبرياء .. فلا أحد منهم يعرفني، فقط ظنوا أنني طيبٌ لكلمة قالها، شاب يبحث عن الطعام، هذا ما يودي بالناس نحو الجحيم، أنهم دائمًا لا يتحسبون لشيء، خلسة ذهبت من بينهم وعدتُ للكوخ فوجدت الشاب كما هو، أخبرته أنه فراق بيني وبينه، وخيرته أن أذهب أو يذهب، فأبى إلا أن يذهب هو، أغلقت الكوخ وانتحبت على حالي، فلقد جاء اليوم الذي أطلب فيه الطعام لعلم علمنيه الله، ونور بثَّه في قلبي، حدثتني نفسي حينًا من الدهر، أنني لم أمد يدي قط، ولن أفعل أبدًا، بل كانت خطأ متعجرفٍ أهوجٍ، وهاهو قد ذهب، نفسي تلك طالما سوغت الآثام .. فقط ليهنأ نومي وتستقر حياتي، النفس أمّارة بالسوء فاجتنبها، كانت بداية رقٍ ورِق، دوّنت فيه اليوم ودوّنني، دوّنت فيه آثامي ودوّنتني، ثم غلبني الكرى ولم أغلبه، وغلبتني نفسي أن سلمتني إليه-اللعنةُ على النخّاسين-! رأيت في منامي شيئًا أفزعني.. رأيتني عاريًا أُصلب والمتأله من خلفي يَضحك ويُضحِك، والفتاة على حالتها الأولى ومن حولها الأوغاد يتلهون بها، كنت أختنق .. ضاق صدري بما فيه وضقت ذرعًا بنفسي، وقف المتأله يخطب في الجمع المُشاهد، حتى خصّني بكلامه قائلًا " إنك يا نور، تبحث عني لتطهرني أو تمحُ أثري الخالد رغمًا عنك، وفي كل أثر لك إثم اقترفته، فهلا تطهر نفسك أولًا " ، انتفضت من نومي ودوّنته محِقًا، ولكنه قال لي يا نور، فأي نور ذلك الذي يقطنني، حدثتني نفسي من جديد أنها إشارة، فلا تحزن ونم، أنا دائمًا أقول أنني

زهدت، وأنصاع أبدًا لنفسي، اللهم أغفر لي: خطأي وتجاوزي، أتممت الليل أتعبد وأتضرع لله، رأيت النور يحدّني، رأيت معية الله فيّ، نور .. كلمة قالها الكذوب فصدق منذ هذا الآن، نزعت عني اسم أسمانيه أبي، وصرتُ نورًا، أنا نور..

بِتُ ليلتي هانئًا، فلقد علمتُ من الله أنني كنتُ نورًا منذ ولدت، ولكنني عجزتُ أن أرى النور داخلي، عِشتُ السنين القاسيات في ظلم وظلام، حتى أتجلَى لنفسي وتنقشع الغمامة عنّي فيرتد إليّ بصري ويحتال حديدًا، كنتُ أرى في نفسي تلك النُكتة السوداء وأتضرر منها وأحزن لها وأبكي عليها، ولم أر يومًا إلا اليوم، أن تلك النُكتة كانت جلية لأن النور يكسوها، ويأويها بصفحته النظيفة العطرة، فتركت ما كان فيّ من نور وأدركت أنني ذا نُكتةِ سوداء، هذا الكوخ أصبح كالسجن بالنسبة لي رغم أنني تجليت لنفسي فيه، إلا أنه يشكل عبئًا على قلبي الحالم، دوّنت ما كان من أمر النور، ولملمت ما تبقى لي وانصرفت بلا وجهة يسوقني هدف .. أن أقوّم الناس وأصحح خُطاهم، فلا أمرّ برجل وأتركه هائمًا منصاعًا لشيطانه ولنفسه الشيطانية! تراءت ليّ بعض الخاطرات عن أهل تلك القرية التي أعدت لهم وعاءهم، من أين آتاهم كل هذا الرزق في أيام قحط كذي الأيام، قلبي أخبرني أنهم اتبعوا المُتأله، فصدهم عن كل شيء إلاه، ووعدهم رحمة لا يملكها، أعطاهم وقد كانوا مسلوبين فامتلأت أجسادهم بعد النحول وأشتدت أعوادهم بعد الانحناء، أرادوا أن يضيفوني عندهم، بعدما علموا أنني سأجابه مولاهم، فأرادوا أن

يتقربوا له ولو برأسي، "البوح .. البوح ينقذ الأفئدة من الذبول" كانت مبتدأ التدوين لتلك الليلة بعدما أرهقني سير النهار، ألهمني الله أن أستقر لكهف أبيت فيه ليلي العميم وأصبح ذاهبًا، قضيت الليل أكتب إلا سويعات اقتطفتها لنومي، ورغم أنني لا أطعم إلا وجبة واحدة في اليوم، تمرتين على الأكثر وكوبين من الماء .. إن وجدته، اعتدل حالي وتحسن شأني، لا يُهزم أبدًا من كان الله حليفه، إن حزب الشيطان هم الخاسرون، هكذا كانت نهاية تدويني لليلتي، في الصباح الباكر طفقت أسعى إلى اللا وجهة يحدوني الأمل، اقتربت الظهيرة واستشاطت الشمس غضبًا، ازدادت حرارتها حميةً فاهتديت لنهر، خلعت عني ثوبي وألقمتني إياه ألهو بجوفه، كانت مياهه الدافئة تعوضني عن شدة الحرارة ونقائها يغسل عني كل ما تبقى فيّ من دنس اسمي القديم حتى لا أذكره .. فلوقوعه على قلبي لألم شديد أخافه كما أخاف الأفاعي، لا بل النساء .. فالأفاعي تُصادق، أما النساء فتُهلك من يحاول حتى، أنهيت غُسلي وهممت إلى الشاطئ، خرجت عاريًا كما ولدتني أمي، أين أمي من كل هذا ؟! لِمَ لَمْ تُصِّر على أبي أن يسميني نورًا منذ البداية، حتى يتملكني نور الله ونور إسمي، أمر الله النافذ ولا مردَّ له، خرجت عاريًا فلم أجد ملبسي .. اللصوص منتشرون ولكنهم لا يسرقون ثوبًا مُرقّعًا تَمَلَكه العفن، سمعت همهمات هامسة، تبينت الصوت حتى رأيت فتاتين تمسك إحداهما ثيابي بأطراف أناملها باشمئزاز بليغ، فيما تشير الثانية إلي ويتبادلان الضحك، انتفضت هاربًا من فرط الخجل نحو الماء، دعوتهما من الماء أن أتركا

ثيابي فأبيا، ولما صار اختبائهما وراء الأيكة الجافة، بلا سبب خرجتا، فتكلمت إحداهما أن اخرج علينا، وخذ ما لك! فآثرت الصمت ودعوت الله أن يرحمني برحمته الواسعة، فمالي لا أبلغ منحدر حتى يجرني إليه منحدر آخر، عدلت عنهما وتركتهما وشأنهما، فما كان منهما إلا أن ملّا مني، فلما قست عليهما الشمس تركا ثوبي، وعادا لدارهما القريبة، كيف لم ألحظ تلك الدار يا ربي، أمر الله .. خرجتُ بحذر حتى أمسكت بثوبي، فارتديته، ومن ثم كدت أهرب، ولكن شيء برق بداخلي .. لِمَ أهرب دائمًا ؟ أيهرب من كان حقًا ويدع الزور يتغلب، اتبعت خطى الخاطئتين حتى قرعت بابهما، فخرجت عليّ إحداهما، وما لبثت أن رأتني حتى أوجم وجهها المنير، وتلألآت لؤلؤتاها، نظرتُ إليها بحذر ثم ألقيتُ عليها حديثًا قاسيًا، قلتُ " إن كن نسوتنا كما أنتِ وصاحبتك لفسدت الأرض، ولما كن مثلكما فسدت بالفعل " فبكت الفتاة، وتهدج صوتها، وهي ترجوني أن أسامحها، فإنها حتى لا تعلم لِمَ فعلت هذا، أخبرتها أنها خاطئة وصاحبتها، أخبرتني أنها ستقبل على الله ليتوب عليها، أدرت ظهري لها وانصرفت، سمعت صراخًا وشجارًا من خلفي، كان الباب موصدًا لما استدرت، ولكن الصراخ استمر لحظات ثم توقف، الباب حجب عن عيني أن ترى ولكن قلبي اخترق خشباته، كانت الفتاة تحوي قلبًا منيرًا كوجهها، ولكن صاحبتها كانت بائسة بنفس تائهة بين دروب الذنوب وتعاريج الآثام وقلب عفن مات منذ بادئ كل شيء .. منذ سنين، النور إن أطبق عليه الظلام انطفأ، ولا يظهر إلا إن مُحِق الظلام، ذلك

ما فعلته الفتاة، إنما أرادت لنورها أن يسطع، وما كان لها إلا أن تمحق ظلام صاحبتها، وقد كان أمر الله، لكل دار مما رأيت وحتى تلك الدور التي لم أطئها قط ولن أطئها يومًا .. لكلٍ منهم سر يحويه، ما إن تقترب حتى تسمع به، وما إن تخترق حتى تحفظه عن ظهر قلب، ففتاة الجبال طالما أرادت أن تثبت لأبيها حبًا حتى بعدما ذهب، فربما رأته في منامها، ربما اختلقت كل شيء، ولكنها اعتنت بي، فقط لأجل رؤى والدها، التي ستحققها، وإن تعثر حظها حيث أوقعها في، فلربما يأتي من بعدي ألف ألف من الرجال يقبلون بها وبرؤى والدها المزعومة تلك، تحاملت على نفسي وبالكاد تحملتني قدمي حتى وطأت أرضًا غريبةً.. أرضًا هادئة، وكأن أهلها نيام لا يستيقظون .. هم أقرب للأموات، تلك القرية ليست إلا صفّين من الدور المرصوصة كلها خاوية، سمحتُ لنفسي أن أنقب فيها لما تبين ليّ أنها خاوية، أمر الله .. الله سمح لي، لم يكن لي الخيرة كي أرضى أو أسخط، ارتضيت واحدًا منهم حيث ألهمني الله أن أصعد، رأيت فراشًا قطنيًا، ألقيت بجسدي المجهد عليه، وأسلمت روحي إلى بارئها، غالبني النوم حتى غلبني وأحكم قيده على الجسد وأحلامه، وكأنني نمت لأني أشتاق رسالات ربي، في المنام؛ رأيتني فوق الجبل القديم، أدعو الناس من أعلى، «أن النور يا قوم، يكمن بالقلوب، فلكل قلب نور، ولكل فرد قلب، فابحثوا كما الباحث «فابحثوا كما الباحث، فابحثوا كما الباحث» استيقظت وأنا أرددها، حسبت أنني نمت سويعات الغروب فقط إلا أنني استيقظت وقد أوشك الفجر على البزوغ، لا أعلم

ما الذي قذف تلك الفكرة إلى عقلي، ولكنني تسائلت .. كيف لبشر ضعيف يمرض أن يدّعي أنه إله، و إن الإله لا يمرض و يصاب ولا يُعل، إن وجد الإنسان أقوامًا يصدقون لاقتنع فعلًا أنه إله، فهذا المُدّعي يعلم أولًا وأخيرًا أنه مُدّعٍ، ولكنه سينسى إن آمن به الجمع، سيرى في نفسه الخالق وهو المخلوق الضعيف الهيّن، دوّنت كل شيء وأنهيت تدويني قبل أن أرحل بجملة صغيرة، طالما رددتها «وكان الإنسان ظلومًا».

الإنسان ظلومٌ لنفسه وذاته، أو بالأحرى نفسه هي الظلومة له، وددت لو أرحل عن هذا البيت سريعًا، بِتُ أضيق ذرعًا بالاستقرار، أصبح الخلاء لي ملاذًا من الدور وسجونها، وأصبحت الوحشة لي مغنمًا عن قرب الناس، اقتربت من الباب، ولكنني وجدت شيئًا، ربما خطف مني بعض الوقت، رأيت كتبًا، لم أرَ أي كتب منذ أمد، رأيت كتابًا معنونًا باسم «النبيّ» هذا الكتاب خُطّ باليد .. لا يحوي اسم مؤلف، حبره لم يمضِ عليه وقت طويل بعد، كان ناصعًا بحق، ظننت في المبتدأ أن الكتاب قديم، وما أن تبينت لي البينات وظهرت البراهين والمدلولات، رأيت بنور قلبي أن الكتاب لصاحب النُزل، كتبه وكتمه حتى لا يُزج به أواسط الناس، يضلونه عما عاش فيه، واعتاد عليه، أشرقت الشمس حينما سحبت الكتاب من فراشه واسترحت على أريكة قريبة، تصفحته سريعًا قبل أن أبدأه .. كانت تلك عادتي، ومن ذا الذي يتخلص من عاداته في مستهل الكتاب، كتب المؤلف «يا من تقرأون، اسمعوا واعوا، بات ظهور المُخلصُ وشيكًا فانتظروه، وما إن يتجلى فاحتفوا

به واقبلوه وأقبلوا عليه واتبعوه» كانت الكلمات تحدث ضجة عارمة فيّ، ذاك المخلص .. لِمَ سيأتي؟ ومما سيخلصنا؟ ألم ينقضِ زمن الانبياء والمرسلين؟ فكيف لنبيّ أن يخرج؟ فقاطعتني نفسي .. وهل المُخلِصُ نبيّ ؟، وتركتني .. ما هذه الهرطقة؟ وما لهذا الكاتب يهذي؟ حدثتني نفسي بأن أستمر، ولا أعلم لِمَ انصعت لها راضيًا، وعلى غير مضض كنتُ، عدلت عن الإستهلال وبدأت في العنوان الأول، كتب في وسط السطر الأول، مبتدأ الفصول والمُنتهى !، فكيف لمبتدأ أن يستحيل منتهى، هذا الرجل مسَّه الجنون لا محالة، اهدأ واتبع قول هذا الرجل، حدثتني نفسي بتلك الكلمات، انصعت مرغمًا، كانت الفقرة الأولى أقرب لعلم قديم مندثر يسمى الفلسفة، كتب الراوي «كان الناس قديمًا بحاجة لشيء يرسخ إيمانهم، فالإيمان بالغيبيات شبيه بالنرد، إما تستقيم رميتك فتربح أو تهتز، فتكن من الخاسئين!» ما هذا؟ وما ذلك النرد! يا الله أصلحني يا الله، لم أفهم معنى النرد، ولكنني فهمت أنه يعيب في الإيمانيات الغيبية، هذا الرجل يميل للهرطقة لا محالة، أمر الله .. أكملت الفقرة فقال «ولذا قام المهوسون من رجال الأديان كافة على مر الزمان، باختلاق القصص الأسطورية، لتثبت في نفوس البشر العوام، فيشب الصبي على أن الخير ينتصر أخيرًا، فماذا لو كان الشر أقوى، ويشيب الشاب على أن الآخرة أبقى، فماذا لو لم تكن هناك آخرة» ما هذا الكتاب؟ أخذت أتصفح الكتاب عن أمامه وظهره، كان غلافًا صلبًا قويًا من الجلد الأسود وفي الداخل رُزمة من الأوراق الصفراء المتينة، كان الكتاب صغير الحجم

ولكنه عميق الأثر، في بادئ الأمر شرعت أفكر في ما ورد به، ولكنني رددت نفسي عنه واستغفرت لذنبي، إنني كنتُ من الخاطئين، أكملتُ «ترعرعت الأساطير بين الناس وازدهرت فكانت هي المرجع الأول لكل أمور الحياة، حتى جاء الأمر الفاصل .. أن بدأت النهاية، وأن انتهى ذا الفصل» ماذا؟ كيف انتهى الفصل وأنا لم أفهم منه شيئًا بعد إلا الكثير من الهرطقة الغير مُبررة، حدثتني نفسي السيئة اللعوب، أن أعاود القراءة، فحاولت أن أتمنّع، عجزتُ! الفصل الثاني «التنزيلُ» ابتدأ المؤلف فصله الثاني بأن قال «وبعثنا لكلِ أمةٍ رسولًا» تملكني الضجر حينها، أمسكت بقذالي واستغرقت أفكر في ماهية هذا الرجل الذي كتب، فتارة يشكك وتارة يؤكد، ما هي الفلسفة؟ لقد تبادر إلى مسامعي عنها خبرٌ ولكنني لم أشهد من حضارتها شيئًا، ولم أستمع جيدًا لما ورد إليّ من مجدِها التليد، كان خطئًا فادحًا أن مررتُ عليها غير عابئ، أمر الله النافذ .. كتب الرجل «بداية التنزيل أن قسم الله الدين الواحد لرسالات متفرقة وأرسل رسولًا واحدًا برسالة من الدين لقومه فاقتتل الناسُ وتناحروا، فمنهم من قتل الرسول ومنهم من آمن به، ويرجع ذلك للأساطير، فما بال قوم يؤمنون، بشيء يخالف عقيدتهم الأسطورية، وما بال رسول يرد قومه عن دينه ودينهم، وكانت عاقبتهم شرًا حين اجتمعت ألسنتهم جميعًا بأن قالوا «هذا ما وجدنا عليه آباءنا» أغلقتُ الكتاب وقمتُ من مجلسي فقتلت الدار جيئة وذهابًا، أفكر في ما قرأت، هذا الرجل المهرطق، يتحدث بصدق، فقد ظهر لي صدق كلماته من جزيل عباراته، وفي الجزالةِ يقينٌ،

ومن نبرته الهادئة، وفي الهدوءِ صدقٌ، نعم إني ألتمس نبرته في كلمات مكتوبة، هذا نور الله في قلبي يوجهني، لقد أمضيت الصبح اقرأ وما غفلت عن قراءتي حتى اشتد حر الظهيرة، تضرعت لله أن يهديني وأخرجت رِقًّا جديدًا مُدَونًا فيه كل ما قرأت، عسى أن ينفعني أو أتخذه مرجعًا، أسلمت عيني لنوم، بعد ساعات من القراءة، وارتحتُ..

ارتجت الأرجاء وتعالت الأصداء، كان الظلام يكسوني والصراخ يغمرني، الدار كما هي .. لم يتغير شئٌ إلا وجودُ رجلٍ أشعث كثيف اللحية، شديد اسودادها، رغم أمارات الزمن التي تتجلى فوق صفحة وجهه العابسة، مشيرة إلى أنه ابن خمسين ربيعًا، رمقني الرجل بنظرات خاوية، إلا أنه لم يُطل النظر إليّ، وابتدأ قوله «إن ذا البيت لكنز.. فاغتنمه» ألقاها ثم ولّى مُدبرًا، كان حلمًا مريعًا، حسبته المتأله في البداية، أنا وأنا نور أخشى مجابهته إلى الآن، ربما هذا ما دفعني للبقاء بذا الدار القديم، أجبرني أن أستقر، الإستقرار يذكرني بضعفي أبدًا، يجب أن أهجر هذا المكان، وإلا ارتددت لضعفي، ومن يعلم؟ ربما ينسل نور الله وينفلت حتى يغيب بغير رجعة لقلبي المتعب، وما أتعب قلبي سواي! أمر الله .. حدثتني نفسي أنني غير متعب، وأنني نلتُ قسطًا كافيًا من الراحة، توقف صوتها بداخلي، ربما جعلتني أفكر .. هل سأخرج بالفعل؟ سأُتمُّ الكتاب، ومن ثم أعود للإرتحال، أخرجت من مخلاتي ثمرة كنت أحتفظ بها أسكتُ بها معدتي المسكينة، وبعدها تركت الفراش منكبًا نحو الكتاب، جاء الفصل الثالث «ابن أبي البشر» كانت قصة..

كانت تحكي عن رجل يعمل في بناء الأبنية، ذا الرجل كان في الأزمنة الأولى .. في تلك الفترة التي بدأ الإنسان تفكيكه وتخريبه، ولد ذا الرجل لأب عاش من الأعوام ألفًا، حكم عشيرة كاملة، ولما هبط أجله وحانت لحظته أسند حكم العشيرة لابنه وأوصاه أن يتخفَّى في حكمه خشية أن يصيبه مكروه، إلا أن العشيرة التي امتثلت ألف عام لحاكمهم ما لبثوا أن واروه التراب حتى فجروا وتفاجروا، فجاء دور هذا الرجل أن يحمل على قومه أن يعودوا لرشدهم بعدما سرت بينهم الفحشاء، كانوا لا يضعون ضوابطَ لشيء .. يفعلون ما يحلو لهم، كان الرجل إذا ما أعجبته أمه.. أخته .. زوجة أخيه، آتاها بغير حق! الشاهد في تلك القصة أن هذا الرجل لم يترك قومه ليبتئس بما حل بهم، بل أصّر على أن يردَّهم للطريق القويمة .. وقد فعل «شعث بن آدم»!

أدركت حينًا بعدما أتممت الموعظة أن كاتب ذلك الكتاب أراد معانٍ قوية تكمن وراء ألفاظه العائمة، فما بال «شعث بن آدم» إلا أنه ربما كان يعلم أن هذا الكتاب سيلتقطه بعض السيّارة الذين تركوا أهليهم يضلون وفروا بأنفسهم هاربين، يا نور .. أنت لم تهرب أنت فقط ابتعدت تتحسس نور الله، وها قد وجدته، إليكِ عني يا نفسي، فما ألعنكِ من نفسٍ، في شِرعتك أنا لم أخطئ قط، وها أنا ذا تغمرني خطيئاتي وتعلوني معاصيّ، اظلنا زمنٌ عسِر، حتى الطِفلة العجوز احتالت لعوبًا تغدر، قلبت صفحة ثم تلك التي تليها، كان هذا الفصل يتحدث عن بعض الأنبياء والصالحين، جذبتني قصة جديدة بعنوان «ابن أنتيبار وكلمة

الله والمُغَطِس» كان العنوان صادمًا بالنسبة لي، إلا أنه ما ورد بين طيات الكتاب حول تلك القصة، كان أكثر عجبًا وأوقع حدثًا، قال الكاتب الخفي أنه كان راهبًا ورِعًا يعرفه الناس بتقواه وقربه وأنه مباركٌ حيث نزل ومن أين جاء ذا الراهب كان يُدعى زكريا، كان شيخًا وله زوجة عجوز عقيم تُدعى أليصابات، ذات ليلة كان الكاهن يتعبد بالهيكل، فجاءه ملاك بشّره بأن سيولد له ولدٌ مباركٌ حيث راح ميمنًا حيث أتى، فلما أخبر امرأته عما حدث أخبرته أنه أمر الله فلا تبتئس، وتهلل لعله الخير لنا، كان زكريا يخشى قول الناس، وخوضهم في أمره، ولما حبلت أليصابات، عادتها مريم العذراء يومًا، فارتجت بطنها وارتكض الصبي فيها حتى أعياها، فهللت العجوز وقالت «مباركة أنتِ حيث جئتِ يا مريم» ولمّا أتمت أليصابات عدِتها، أتت بـ(يوحنا) فكان خير جليس وصاحب للمسيح وكان خير عون، كان لا يتهاون في دينه، حتى أنه ذات يوم أقبل على الملك هيرودوس بن أنتيبار وقد كان الأخير عاشقًا ولِهًا لابنة أخته، فحرّمها عليه يوحنا فقتله الملك، ومن ثم أصابه الهلع، فقد كان يرى في كل سخطٍ غضبَ يوحنا.. يوحنا المعمِدان.. صاحب المسيح! أنهيت القصة أو حسبت أنني أنهيتها، فلما وجدت سطرًا بآخرها وقد ورد به كلمات لم أفهمها، ولكنها ربما كلمات مفتاحية لا أكثر، كانت الكلمات « من بشرات متّى ومرقس ولوقا ويوحنا » أغلقت المعجزة التي امتلكت، وخلوت لنفسي أعاتبها وتعاتبني، خِلتُ أنني اقرأ كلامًا أنا مرجوّه وأنا موصوفُه، خلت أنني الذي كان يجب ألا يترك قومه هناك، أنا شعث بن

آدم، وخلت أنني ذلك الذي انزوى بما علَّمه الله متخفيًا عن الأعين خوفًا من مواجهة ذلك المتأله، أنا يوحنا بن زكريا، نفد قوتك يا نور، يا لكِ من نفسٍ سفيهةٍ لا تبالين بأمر، انصعت لنفسي من جديد، وتركت الدار لأول مرة منذ وطأته باحثًا مفتشًا عن زاد أطعمه، أو طعام أخزّنه، بحثت كثيرًا ولما مللت، وكاد صبري ينفد رأيت شجرة صغيرة تعلوها بعض الثمار، اقتربت لألتقطها فحملت بعضها بيميني، ثم انتبهت إلى أنني لم أترك الكتاب في الدار، خرجت به، ارتبطت بذلك المؤلف الذي لا أعرفه كما لم أتعلق بشيء قط، هذا الكتاب يمثل لي النجاة، ففيه الحياة السابقة والآتية، أنا جاهل .. أنا لا أعلم شيئًا مطلقًا، تلك القصص القصيرات بهذا الموجز، لم أسمع بها قط طوال حياتي، يالي من بائس، يتحسس أولى خطاه، بعدما شابت رأسه، أمر الله، لعله الخير لنا، لي ولنفسي، لعله الخير لنا كما قالت امرأة زكريا، وضعت الكتاب أرضا حتى التقطت الثمار، ثم حملته من جديد وعدتُ للدار، في طريقى رأيت مشهدًا عجيبًا، كنت أراه طوال عمري، ولكنني ما تفكرت فيه أبدًا، رأيت الله، رأيت كيف يخرج الله النور من بواطن العتمة، ويزج به إلى البشر، ليستضيؤوا به، رأيت الليل الأسود البهيم .. كئيب الإسوداد، ونور القمر المبهج المُطَمئن، كان الليل نفسي، وكان القمر نور الله في قلبي، فيا ربي روِّض لي نفسي، فإني ضعيف أمامها، إن النفس لأمارة بالسوء، أمر الله .. رجعت الدار، أكلت نصف ثمرة وتضرعت، وبعدها .. جلست عند الفراش متعمدًا ألا أغفل، فإن نفسي كانت تطلب النوم، وتعمدت ألا أرضيها، فتزيد

مطالبها، فيصعب عليّ تحملها، جلستُ أرضًا أستجلب الصباح، متلهفًا لقراءة المزيد، القراءة .. من يطلبها أنا أم نفسي، تسائلت وغلبني النوم، فعلمتُ أنني لم أكن الطالب !

ذلك الكنز الثمين الذي امتلكته، كان مقدورًا لي من قبل، فالذي كتبه خطَّه بيده المرتعشة تلك، ليُتمَّ عمله الموجز الجامع هذا، ليصير نسيًا منسيًا، ثم أعيد أنا اكتشافه بعد ربما قرون أو عقود أو حتى أيام، المهم أنه كنز عسجدي، لا يشوبه قبحٌ ولا يخالطه انطفاءٌ، برق في نفسي خاطر أنني لا أعرف الكثير من أمري، أعرف بعض الآيات أناجي بها ربي، أعرف بعض القصص التي أدّعى الكتاب أنها أساطير ابتدعها الجدد، ليُسهِّلوا عليَّ الناس إيمانهم بغيبيات الكون وغوامض مدلولاته ما لبث أن استحال هذا الخاطر، لعزم أن أتم الكتاب ولو كان الغد، فما لي من معلم غيره، و ياله من معلم! حقًا كانت هذه استفاقة قصيرة راودتني، نغّصت عليّ هانئ نومي، ولمّا استفقت الاستفاقة الكبرى، رأيتني أهزل، الجوع يتقاذفني، ربما لم أشعر بنفسي، لم أتناول إلا ثمرة واحدة أو بعضها مذ الأمس، فماليّ أصادق بطيء الموت، وأجلب أجلي المقدور ملهوفًا، خرجت إلى حيث وضعت الثمرات، انتقيت واحدة ذات مذاق أحبه، وطاقة كبيرة تساندني، حتى يشتد عودي قليلاً، و يغيب ضعفي ونحو لي، الحق أن الثمرة أحدثت فيّ الفارق، ودبّت -بإذن الله- في جسدي الميت الحياة من جديد، حقيقة اكتشفتها مؤخرًا، الروح يُحيّها غذائُها، والجسم كذلك، الروح تأكل الذكر والإيمان والتدبر، والجسد يطلب الطاقة اللازمة لعيشه،

الروح رغم أن غذاءها يسير الإيجاد، إلا أنه الأعسر على الناس، فكم منّا لا يدري شيئًا عن غذاء روحه، ولا يشغله إلا فوارغ الأمور وطعام بطنه الذي ما يلبث أن يخرجه من جديد، أما غذاء الروح فأبدًا ما يخرج منها! أمر الله أن قدَّر لي هذا، التقطت الثمرة بفمي، ومضغت منها جزءًا، وأنا أقلب بين طيات الكتاب حتى اقتربت للعنوان ما قبل الأخير، كان ربما إشارة، كان عنوانًا خاطفًا فعلًا، جذبني من ذاتي، حتى التهمت صفحاته التهامًا، كان اسمه مزامير النبي «دانيال»، كانت القصة تحكي عن رجل اسمه «داوود» يرجع نسبه ليهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، كان رجلًا تقيًا، لقب أنه رجل حسب قلب الله، لورعه وتقواه، وصلاح نفسه وعمله، ثم كتب الرجل العالم في كتابه هذا أن الله بعث في صموئيل فقال تعال، أرسلك لبيت يسي، فإني أرى لي في بنيه ملكًا، ففعل صموئيل النبي كما أمره ربه، فمرر يسي أبناءه السبعة أمام صموئيل ثم حجب الصغير لعمره، فجاء صموئيل قائلًا له اذهب وأتِ به، ثم قال الله قم امسحه لأن هذا هو، ورد هذا القول في كتب «صموئيل والمزامير»، كان المؤلف مُلِمًا بالكثير من غوامض الكون ومستوراته، فحق عليَّ أن أتعلم منه علمًا ينفعني وأنتهل منه، فنعم المنهل المبارك، وحول جزء الأساطير، كان يجب أن يكون لداوود أسطورة تجعل الناس يؤمنون به، لما جمع الفلسطينيون رجالهم للحرب وتجهز لهم الملك شاؤول، وبني إسرائيل، تقدم جيشَ الفلسطينيين جليات تعتليه خوذة نحاسية فوق جسده الضخم المغطى بدرعٍ حرشفيٍ، وجرموقا نحاس على رجليه، ومزراقٍ

قصير، فوقف جليات متفاخرًا بقوته وصحيح بدنه، أن اختاروا لكم اليوم رجلًا، فتقدم داوود، فباركه الملك وألبسه الدروع وكاد أن يرسله على هيئته تلك إلا أنه قال: لا أطيق المشي بتلك الدروع، والتقط من الأرض قطع الحجارة، فتقدم له جليات مستهزءًا، فرجمه داوود بحجره الأول فارتز بجبينه، فسقط على وجهه، فركض داوود نحوه وأخذ سيفه، فقطع به رأس العتّي، فتقهقر الفلسطينيون هربًا لمّا خرّ ملكهم، أنهى الكتاب كلامه حول دانيال هنا، إلا إن تساؤلاتي لم تنتهِ بعد، فهل فعل داوود هذا حقًا أم أنها أسطورة كغيرها، من فعل يوحنا أم أن يوحنا فعل ما قيل بحقه أيضًا، يوحنا صادق كلمة الله، وما كانت كلمة الله كذبًا، جاء المسيح ليعجز الناس، ليرشدهم لإله واحد، دائمًا كلما رددت كلمة المسيح، أشعر أنه يوجد اثنين يلقبونها، لا أتذكر من مع المسيح كلمة الله يشاركه اسمه، حسنًا .. قول الله أن المسيح كلمته، وقول المسيح أن يوحنا صاحبه، وكانت أفاعيله ليوقِّرَه الناس، وكذلك فعل داوود، أغلقت الكتاب قليلًا وظللت واجمًا وعلى هيئتي كل البلادة، كدت أسقط اللعاب من فمي هائمًا، بِتُ أشعر بدوار شديد يراودني، ذهبت نحو مأكلي فالتقمت ثمرة صغيرة أودعتها معدتي، وكانت لي خير سند، في أيام قاحلات غائمات غير مفرحات، ماذا أراد الرجل من كتابه هذا؟ هل هو تأريخ لأزمنة ربما يجهلها كل الناس مثلي، وما يفيد الناس في تاريخهم الآن، وقد خربت الأرض، وخرّت لجبار جديد .. لدجّال يُخرِس العقلاء، ويتبعه الهاوون، عدت للكتاب من جديد فرفعته إليّ، وشرعت أستقي

العلم الأخير فيه، كانت القصة الأخيرة تحمل اسمًا تتهلل له الأسارير وتنبسط، و يرقص القلب له طربًا، كانت اسمها "محمد" في حق من بشَّر به، كان اسمًا مريبًا، وكانت جمل تلك القصة جزلة حقًا، يبدو أن هذا المؤلف كان يجيد استعمال لغته وفكرته ومواضيعه، لابد أنه كان عالمًا بحق، في مبتدأ القصة كانت مغايرة لتلك التي رواها المؤلف قبلًا، فخط بعض المقطوعات والمقتطفات ومن ثم عاد لطريقته الرائعة في حكيه،

- الحقَ أقول لكم: لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان، ولكن الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه.. لأن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبؤوا، و إن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي، من له أذنان للسمع فليسمع. (متى ١١/١١-١٥).

- بل ماذا خرجتم لتنظروا، أنبياً؟ نعم أقول لكم: وأفضل من نبي، هذا هو الذي كتب عنه: ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك، لأني أقول لكم: إنه بين المولودين من النساء ليس نبي أعظم من يوحنا المعمدان، ولكن الأصغر في ملكوت الله أعظم منه. (لوقا ٧/٢٦).

بعدما كتب تلك الفقرات، قال متسائلًا، من الأصغر في ملكوت الله، ومن ذا الذي، غابت قبله الرسالات والأنبياء أمدًا كبيرًا من الدهر، هذا الذي بشّرت به الأناجيل، وبشّر به القرآن، وأقسم الرسل أنه لآتٍ وأنه للحق من ربهم، مصدقًا لما جاءوا به، وما سيجيء به إن هو إلا وحي يوحى، أنزله شديد القوى، ذو مرة فاستوى، وهو بالأفق الأعلى، نادوا بأن محمدًا

للحقُ، فظهر في الناس من ضلوا، فأضلوا الحيارى، ولم يهتدِ إلا من كان ذا قلب سليم، لم يتملكه الشيطان من المس، (بشّر المسيح بمحمد، وآمن محمد بالمسيح ومن بعثه)، بتلك الجملة أنهى المؤلف كتابه الموسوعي، رغم حجمه الصغير نسبيًا للموسوعات، لقد تكلم عن "يوحنا"، وذكر متّى ذلك في حقه أنه أفضل أهل الأرض من بعد النبي محمد، الأصغر في ملكوت الله، يوحنا كان صالحًا وكان صدّيقًا نبيًا، ولد لزكريا، وكان أبوه صالحًا، وكان صدّيقًا نبيًا، يا الله .. شعرت بالحياة المسلوبة تعود لعروقي الجافة، تنفست الهواء الذي كان غائبًا طويلًا، العلم يحيي الموتى كالمسيح، بأمر الله النافذ، «المسيح».. كلمة الله، أمات وأحيا، وأبرأ الاكمه والأبرص، بإذن الله وأمره النافذ، وكذلك يوحنا، كل ما فعل بأمر الله، ومن قبلهما، كان «آدم» وابنه «شعث»، ومن بعد آدم، كان النبيّ «دانيال»، ومن بعدهم جاء ختامهم، كان النبي «محمد»، ترى هل قصد المؤلف باسم النبيّ، أنه محمد، أمر الله .. هذا أمر لا يعنيني، كل ما يشغلني الآن المسيح، تذكرت .. كان رجلًا سيدّعي الصلاح، ومن بعده النبوة، ومن بعده التأله، كان مسيحًا ولكنه دجّال، المسيح الدجال هل ذا الذي يعيث في الناس كفرًا وعقوقًا وفتكًا، هو الدجّال، هل تراجعت من جديد عن دفعه كما انزويت عن درأ الأذى عن تلك الفتاة التي تركتها مكشوفة بين الكلاب، أإن كنت راعيًا كنت لأترك خرافي للذئاب؟ أم أدفعهم عنها؟ دارت الخواطر بصدري حتى ضج بها، فانفلتت مني صرخة واحدة، أسمعت من أسمعت، وصمّ عنها من أراد، ارتحلت نحو الله،

حاملًا مخلاتي الصوفية، وكتابي المخطوط، ورقوقي التي دوّنت بها حياتي المليئة بالموبقات والمنجيات معًا، وبقيةٍ من حياةٍ مازالت بانتظار نهايةً تليقُ، قبل خروجي من الدار، ارتحلت أحمل نور الأرض في قلبي ومثله معه، وفي قولي خليط من حكمة السابقين، خرجت كالباحث عن النور، الحق، خرجت باحثًا عن الله في قلبي، فرآه قلبي فيما خلق ورزق، أمضيت من عمري أشهرًا جديدة أبحث عن الدجّال، ولما أوشكت أن تطأ قدماي مدينة تملّكها جلست جلسة أخيرة، أفكر أنني ورغم ما حسبه الناس عليه من صلاح وتقوى، لم أنتبه لكون ذلك المتأله الدجّال، رغم توافق الأوصاف، الحق أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، لا يضل الله إلا من ضلته نفسه من قبل، فاتبع هواه وأعرض عن الذكر وكان أمره فُرطا، كان أعورًا، جاء في أيام عجاف، جاء بالخير المزعوم، جاء وعن يمينه جنة، وعن يساره النيران، أحيا وأمات بإذن الله، قمت من مجلسي وهممت نحو فريستي المرجوة، اجتزت الطريق الطويلة، غير عابئ بالأهوال، متقدًا بالحماسة التي طالما انطفأت فيّ، فأخيرًا علمت أن لما بذلت قيمة، فلا جرم أن انكب نحو إنهاء رسالتي، تلك التي حملنيها الله وحفظتها فحفظني، أمضيت ليالي سفري الليلاء، هادئًا واثقًا كذا الذي يُزف إلى عُرسٍ، ضجر قلبي لمّا اهتزت الأرض من تحتي، وضج المحيط من حولي بالأصوات، في نفسي انكشف الغطاء فأبصرت ما وراء الشيء، تلك الأشهر التي قضيتها باحثًا، لم تكن سوى أربعين يومًا، أذعنت فيهن ليّ، وكنتُ كمثل يوحنا، صوتٌ صارخٌ في البرية، مُبددًا أهوال الصمت

الجاثم على قلبي !، اقترب الضجيج أكثر، في نفسي علا العزم وكَبُر، تلك الأيام الأربعين، كانت بحرَ علم ثمين، وكنزًا ياقوتيًا عظيم، تلك الأيام فقط ما استحققت فيها تلك الروح التي قذفها الله فيّ، وذلك الجسد الذي أمّنني الله عليه، وهذا القلب الذي أضاءه ربي بنور من لدنه، أخرجت رقوقي ودوّنت آخر كل شيء، آخر الرحلة، وتلك الأصوات والكتاب والدجال وباب لُدِ قبلَهُ وآخر ما كتبت أن صرخات الناس وقعت على مسامعي، بُعث المسيح، فتركتني على أوراقي، وانسللت من بينها، نحو المسيح بجسدي، وقلبي يهفو في صدري المُبتهج بنوره، متمتمًا بآخر التدوين، «كلُنا مرهونون بمواطن شغفنا»..

تنقلتُ بين الجمع المُقتتِل على غير هدى، فتارةً أفرُّ، وأخرى يغلبني العشق الإلهي فأبتهج وأستقر، رأيتُ المسيح في جيشه حاملًا سيفه الظافر، ورأيت هذا الدجّال، هل كان لي به طاقة، هل كان لزهدي أن يستوقفه صادًا إياه عن فساده الذي يعيثه شرقًا وغربًا مذ جاء، هل كان سيذوب حين يراني كما هو الآن، ولما غِبت بوجودي في رقعة الحرب، نشبت حربة رأسها بكتفي الأيسر فحملني الدوار، ونزفت حتى احمّر ثوبي، ولم أدرِ ما الذي أصابني حتى استفقت بعد حين، كانت المعمعة لم تزل باقية، خارت قواي .. إلا أنني تحاملت على ما تبقى فيّ من قوة، ورفعت تلك الحربة وانضممت للجيش مُقاتلًا، كنت أبحث عن المسيح، رأيته يلاحق الهارب، فما إن يلحقه حتى يذوب الدجّال كما تدُك الشمس الجليد، وجاءت تلك الحاسمة الفارقة، فرفع عيسى سيفه وهوى به على

رأس المتأله فخر صريعًا، وخضّبت دماؤه السيف الطهور، فاتسخ واستحق التطهر، هرب من هرب من المعاتيه، وانقضت الملحمة، وقضى الله أمرًا كان مفعولًا، تواريت عن الأنظار، واقتطعتُ ليّ قطعة من القماش أربط بها على جرحي فلا يسوء، ويضمر على سوءه، مالي الآن أُبقي على الحياة، وما للحياة تطلبني، وما بال الموت الذي يصد عني صدودًا، لما حملت حربتي، أردت أن أقضي فلا قضيت، ولما قلتُ حربتي أردت أن أمسح عنها خبث صاحب الطيلسة الذي حملها قبلي، فما انطمر أثره ولم أجده، ربما كان مع أولي الطيالسة الهاربين، هم كُثُر، وهم جيش المتأله، انسللت من بينهم نحو مخلاتي، تاركًا إياهم يتصايحون بالنصر، عُدت فدونت أول أيامي في الحياة، فما فات لم يكن إلا لإعداد الرسالة، وما سيأتي إنما هو التمحيص والإختبار، رأيت الدجّال، كان رجلًا أفحج، دَعج، هِجان، جفال الشعر، عينه اليسرى ممسوحة مع حاجبه، واليمنى ناتئة كأنها عنبة طافية، فلا تجدنه إلا مُدّعٍ، كاذبٍ، ولا يتبعه إلا أولو الهوى، حملتُ مخلاتي بعدما انتهيت، وعدت عليّ أفوز باصطحاب المسيح، الذي عاد إلى جيشه صارخًا فيهم بصيحات الظفر، داعيًا إياهم للصلاة، قمنا فصلينا من خلفه، وانطوى أمر المُدّعي أبدًا..

❒❒❒

مرت ستة اعوام، وأنا زاهد عن الجمع، سألت نفسي، هل لازلت نورًا؟ ما بي؟ أحسست بنفسي أهجر كل الذي علمنيه الله، وهل يُفلح مثلي

إذًا؟ طببتني نفسي بأن قالت لا عليك فلم ترتكب جُرمًا، إن ما ينغص عيشك يا نور، أنك عِشت آن الفقر والجذب، فجُعت، وعلمت أن الله خلقك لحكمة ربما ستعلمها لاحقًا، وقد تعلمت يا نور، والآن وقد توافرت الأقوات، واندثر التحاسد، والتشاحن من قلوب الناس والتباغض، فعزفت نفسك عن الدنيا، سكتُ، ثم قلتُ، لا إنما أشعر بانطفاء شعلة الإيمان فيّ، وما سيبقى لي من بعدها سوى الجسد المريض، الذي يحمل بهاء روحي الحالّي، نظرتُ لجدران الجبل، شردت عن كل ما يشغلني، أخرجت الكتاب من طيات تحفظه، طفقت أردد ما به، حفظته عن ظهر قلب، حتى غافلتني نفسي، إن لم يكن رغد العيش ما دفعك للخروج، فلمَ تركت عيسى بعد عام واحد ؟، وقعت الكلمات عليّ وقع الصواعق، فاضطرب داخلي، كدت أغالط نفسي، فبرق بارقٌ قوي فيّ، أن القول حقيقٌ، ولا تكذيب فيه، فآثرت الصمت الذي لا أملك سواه، خمسة أعوام من التيه بعد رغد العام الأول، خطر لي خاطر فأخرجت القراطيس ودونت، فكان مفتتح التدوين مذ توقف كبير، «إن النور يكمن في الإمتلاك والعزوف، والإمتلاك لا يعني الغنى عن الناس وفُحش الثراء، فالفقير يملك الفقر، وعزوفه عن السرقة لهو عين الجهاد، وذو الشوكة يملك الأمر، وتقواه لهو صدق الميعاد» كتبتُ فارتحت .. التدوين أصبح مُطبب جراحي، ومُبرأ دائي، خرجت من تجويفي وسُكناي، وقفت على بحيرة ناصعة النقاء، تبعد عن الجبل بقليل، ماؤها رائق الزرقة، وقفت أتأمل خلق الله، ففي الماء مخلوقات

تُسبح، وفي الجو طيور تغرد، وفي البر بشرُ يُخطئون، كنت قد قرأت في «كتاب النبّي» أن الإنسان أول كائن يوصف بالوحش، فما كان الليث وحشًا، بل كان كاسرًا ولما استوحش الإنسان بات اللفظ يُطلق على كواسر المخلوقات، فذلك الطائر الذي التقم السمكة، ثم حلق بها نحو عشه، إنما هو رزقه، وإن لم يحذر في قادم المرات، ستلتقطه سمكة أكبر، فيصير المفترس فريسة، تلك الحلقة المغلقة، محكمة الإغلاق، سرمدية الوجود، وعلى الرغم من كل هذا، فلا الطائر وحشٌ ولا السمكة، عاودتُ أدراجي نحو المنزل لمّا اشتد القيظ على رأسي، فسرت إلى جانب الجبل، فعطف علي ومنعني شر القيظ، ولمّا وطأتُ سُكناي، وجدتُ غريبًا ببابي، فانطلقت إليه مسرعًا، سائلًه عن مجيئه، فالتقط أنفاسه الهاربات، بعدما هدأ روعه أخبرني، أن الله أوحى لنبيه، أنه مُخرج قوم لا طاقة ولا يد لأحد بهم، ثم أمره أن يعزف بقومه إلى الطور، سألته أن كيف جاء لهنا، أخبرني أنه كان هاربًا، فأرهقه السير، فآوى للجبل حتى يستريح، قدمتُ له كسرات من الخبز، وبعض الماء المحلى بالعسل، فرفضه مترفعًا، حزمت أغراضي، وما أغراضي إلا مخلاة صغيرة أجوب بها أرض الله، وصحبت الرجل نحو الطور، كنا نسير في النهار، وما إن يجن الليل العميم، فنتحسس القمر، إن كانت الليلة قمراء أكملنا سيرنا، وإن كانت غير مُقمرة آوينا لجبل يحرسنا حتى تُضيء الشمس السبيل، سِرنا حتى اشتد القيظ، فلفحنا بنيرانه، فاسترنا بأيكة حنون، ربما قبعت هناك لنا فقط! بضع سويعات واعتدلت الحرارة فأكملنا

الطريق، حتى وطأت أقدامنا الطور، رفع الرماة أسهمهم تجاهنا، فصحنا مُكبرين فأخفضوها، وساعدونا حتى اعتلينا الجبل، لم أرَ تلك الأقوام، ولكنني أعلم أن الله جاء بها ليقوِمَنا عن طريقنا، اهدأ يا نور، فمن أنت لتقوِم عيسى؟ حدثتني نفسي، فأخبرتها سرًا حتى لا يظننّ الناس بيّ الجنون، أنني لا أقوّم النبّي، ولكنني أظن فقط، فما كل ذا الفساد الذي يقصه الناس على مسامعي من أمر يأجوج ومأجوج، فقط يحذرنا الله نفسه، أصابتني حمى، فصرت أُهذي، ولا يُرد لي عقلي في اليوم إلا بضع دقائق، أخبرني الناس أنني أحدث نفسي كثيرًا وأتكلم عن المتأله، وأنطق بكلمات الكفر والهرطقة، فسألت أحدهم وما تلك الكلمات، فتعفف أن يُجيب، ولكنه همس بأذني بقولًا أثقل الدنيا عليّ، وربت البقية على كتفيّ أن هون عليك، لم أُرد إلا التدوين، طلبت مخلاتي، فآتوني بها، أخرجت قرطاسًا أخيرًا، كنت أحمله، دونت فيه من أمر عباد الله الصالحين، وعباده الطالحين، عباده الذين نصرهم على الدجّال، وعباده الذين فُتِحَ عليهم يأجوج ومأجوج، ولما أوشك القرطاس أن يمتلأ، تناسيت ما هُمِس لي، فصرف الرجل الجمع، ووقف وحده يقرأ عليّ قصته، فلما عرفته، وذكرتُها بكيتُ، فلم يلحظ، ودعوت فابتهج، وولى مُدبرًا، كأسير حربٍ فُكتْ رقبته، كان كلُ ما قاله غيضٌ من فيضِ ما أجهلني، أحسست لوهلةِ أنني أحمل على عنقي ذنوبًا لا تُغتفر، ولكنني تذكرتُ أن الله وسع كل شيء رحمة، فدعوتُه وكتبتُ، «يا ربي إن نورًا، كان على غير هدى فرحمته، وهديته، وصنته، وكان ضائعًا، فأرشدته،

وقومته، وأصلحته، فغلبه التوق إليك فلا تردنه خائبًا، إن نورًا، ضاق ذرعًا بما في الحياة، إن نورًا يرغب فيك فلا ترغب عنه يا ربي، وردنّه إليك ردًا طيبًا، مباركًا، ليجف يراعي، وتقصُّ أوراقي كل ما كان من أمري وأمرهما وأمر الذي لم يُذكر بعد».

❑❑❑

هدى

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

العام المنقضي كان الأشدُ عسرًا عليّ ووالدي، فبعدما كنا نرتزق الفتات الذي يُلقى إلينا ونحن صاغرين، غاض الفتات في بادئ الأمر، ثم دخل العام الثاني فمُنع ثُلثي رحمات السماء، ومعها ثُلثي نبت الأرض، فزادنا الفقر جوعًا، وزادنا اليأس قنوطًا، يا الله.. ألن ترحم فتاة تقطعت بها السُبل وضاقت عليها ووالدها فرجاتُ الجُدُر، وألقت بهما نوائب الدهر لبراثنه، يا الله .. كيف لي أن أحادثك معاتبةً إياك وأنا أمة مسكينة في ملكوتك العظيم، مع مطلع العام الثالث أصبح الخروج من البيت انتحارًا، فإما يقاتلك بعض قُطّاع الطُرق، و إما تفترسك بعض الذئاب الجائعة، أوشكت على الجنون، والدي سقيم لا يقدرعلى شيء، وانفلتَ من قصعاننا القوت، وشُدّ عنا المدد الذي كان يُلقى إلينا رحاله بعيدًا، فلم أجد إلا الخروج، إلا أن أبي نهرني كثيرًا ومنعني ذلك قائلًا «الموت جوعًا أعظم شرفًا منه خنوعًا» الحقيقة لم أفهم مقصده حينها، والدي كان حكيمًا، يردد الذكر كثيرًا، لم ينس أبدًا دينه الذي طالما استوثق بعرواه مستنجدًا، ولم ينجده ولو مرة! ..

ذات يوم مرّ بنا متجول، يتسولنا ما لا نملكه، بكيت حينما سألني على باب دارنا، إن كان بوسعنا إطعامه اليوم، إذ أنه لم يأكل مذ بضعة أيام، تبينته صادقًا، الجفاف الذي ألمّ به، والضعف الذي اعتصره، أظهرا الذي حُجِب، بكيتُ .. وقلتُ له إن كان يستطيع هو إطعامي وأبي، فبكى الرجل لبكائي، وفكّ قماشة كان قدّ أوصد بها وسطه، مُخرجًا منها كسرتي خبز جاف، كانا كفيلين بسد جوع دام حتى استقوى عليّ، وجوع لا يزال يغالب أبي، محاولًا صدّه عن دينه، مرّ الرجل ورحل، رحل إلى موطئ جديد، ربما يُرزق أهلوه برزق هذا الرجل، حملت كسرتي الخبز، وعُدت لأبي، أخبرته بما جرى، ففاضت من عينيه أبحرًا، خلّفت وراءها مرارات العذاب، البكاء يسبب الجفاف، لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها، أسررتها في نفسي، فنحن خراف ذُبّحَت، فما الذي يمنع جلادنا أن ينزع عنّا جلودنا ليبيعها، أو يفترشها أرضه، أو لحاجة في نفسه، خففت ما على كاهله، فخفّ نحيبه، وكفّ نشيجه، وأخبرني انه رزق الله، فطالما كان يدعوه ولطالما استجاب له، هو قال ذلك، ولم أر الله يستجيب له، وإن دعى فاتحته من جديد حوّل ذلك الأمر فنهرني، ورمقني بعين الأسى والحزن، ثم حال بيني وبينه جفناه اللذان أسدلهما مشيرًا إليّ بالغروب فغربت، لا أعرف كيف يفكر والدي، ولكنني لا يمكن أن أعصِي له أمرًا، وإن كان مُخطئًا، فمن له من بعدي، قمتُ من مجلسي بعد برهة واتجهت لبابه فوقفت عليه، رأيته من حيث لم يرَ، وسمعته من حيث يسمع، كان يبكي ويتضرع، سألت نفسي إن كان يومًا سيكُف عن هذا،

هو لديه قناعة خاصة أن الله يفعل هذا بعباده لحكمة في علمه، أي حكمة تستوجب كل ذلك الدمار، أي حكمة تقضي بكل تلك الجرائم، أي حكمة تترك الذئاب حرة طليقة، بينما الخراف يختبئن من بطشهم، الله غالب .. كانت كلمة طالما أنهى بها خلوته، تعجبت لحكمة ربه، لِمَ لا ينصاع إليّ، فجربنا إلهه ولم يحفظنا، فلِمَ لا يرتضي إلهًا يطعمه ويسقيه، ويحفظه من بطش الذئاب، ناداني والدي، فنزلت لأمره، أخبرني أنه أحس بدنو أجله، وأنه ذاهب إلى ربه الكريم، الذي هو غالب على أمري، فترقرقت اللآلئ في عيني، وأخبرته وإن غلب الرب وكنت معه، فأين أنا إذًا؟ فأجابني «حية تسعي» سأسعى حينها، ولكن بغير حياة يا أبي، سأكون هائمة في بحور الضلال وغيابات الجهل، أرجوك يا أبي لا تخذلني .. أرجوك .. للحظة ران الصمت بيننا، قطع حديثنا، دعوته فلم يستجب، وكزته فلم يتألم، صرخت، فلم ينتبه، يا الله .. ليس أبي! فمن لي من بعده! أقبلت عليه، وأودعت أذني فوق أنفه فأحسست أنفاسه، ربما فقد الوعي، لكنه لم يغادر، الحمدلله أنه تركه لي، عدت مسرعة نحو خزّان المياة فلم أجد، فخرجت لتلك البئر التي أوشك أن ينضب ماؤها، اغترفت من وحلها بعض المياة وعدت مسرعة دون أن يراني أحد، أو كما حسبت لم يرني أحد، الله غالب .. ربما يغلب الله قريبًا ويفرّج عنّا كربه، ويرزقنا، ويُغدق علينا من كل شيء، ربما آن لحكمته أن تتم! كفاكِ .. كفاكِ حدثتني نفسي أنني أهلك الوقت، جئت بالماء لأبي فصبب القليل على وجهه، فشهق شهقة ردّت إلي روحي، وبعدها ساعدته أن

يرتشف بضعة رشفات، فلما استفاق اعتدل في متكئه وأخبرني، أنه يعلم لا محالة، أنني لن أنجو من ذلك الغمّ، وإن واصلت الفرار، فلربما أحظى ببعض الوقت قبل أن يداهمني أحدهم ويسلبني الكثير، سائلته عن ذا الكثير الذي أملكه فامتعض، لم أنتبهِ، و ياليتني انتبهت، حلّ الليل وانقضى وهج النهار، فآوى والدي لمسكنه، وآويت لفرشة فوق الأرض لِجواره !

تأوهات أبي أقلقت منامي، فقمتُ مفزوعة لأطمئن، فوجدته نائمًا يتأوه ربما يحلم، كدت أن أوقظه ليستقي، ولكنني وجدت الماء قد نفذ، أخذت خزاننا الصغير وخرجت نحو البئر، ألقيت الخزان فيها فامتلأ عن آخره، فانحنيت حتى أرفعه، وما إن لامست يدي يد الخزّان حتى وجدتني بين أيادٍ تتقاذفني، أربعة أو خمسة من الكلاب، يكشفون عني ستري، يحاولون إرغامي على الخضوع، حاولت أن أصدّهم، لكنهم كانوا أقوى، تمنعت عنهم فأوسعوني ضربًا، ولمَا خرّت قواي، وانكشف السِترُ عن المستور، وظهر كل ما خفى قبلًا، شعرت بدوار يلاحقني، الروح تهفو فراقَ الجسدِ، والجسدُ عنيدٌ يجتذبُ بقائها، شردت عن الكل، حتى اعتدوا .. أدميت، فردت إلي روحي بصرخة شعرت بها تُقطع أوصال أبي المكلوم، رأيت الناس يلتفون حولي، ولا يحاول أحدهم أن يمنع الكلاب، الله غالب كما كان يقول أبي، كان في الناس شبابُ باستطاعتهم صدّ أولئك المعتدين عني، ولكنهم تمنعوا، وتركوني لقمة سائغة لنفوسهم العفنة، وحيونتهم الطبيعية، لما انتهوا مني جميعًا ألقوا بي في الوحل بجوار

البئر الشريدة، ومن ثم همّ كل منهم ليرتدي ثيابه وهو آثم، ولم يتركوا لي حتى سُترتي، وهل لها أن تنفعني الآن؟ خيرًا فعلوا أن أخذوها، قمتُ عارية ملطخة بالوحل، وقد تخضبت ساقي بالدماء، قمتُ إلى البيت فألفيت أبي، ألفيته أرضًا عن فراشه الذي لم يغادره منذ سقمه الأزلي، رأيته يغض الطرف عني، لا يقدر أن يرفع فيّ عينه، أحسست انكساره، وقد انكسرتُ، فمن له، ومن لي، أذكر أني لم أخجل، فأي شجرة تلك التي تخجل من عُريّها آن خريفها المُنتظر، أيام قلائل حتى ذهب، فلم أبكِه، لم أحمّله شيئًا مما جرى، ولكنني شعرت أن البكاء من الشيم المغصوبات، فما كانت يد لتمتد إليّ بسوء، لولا أنها رأت فيّ ضعف أشعرها بقوتها الوهمية، الآن .. لن أعود لتلك الفتاة، ولن أرضخ لكوني ضحية، وسأتبع إلهي الجديد، فلقد ذهب أبي لربه، وآن أوان ذهابي لربي..

لم أنم يومًا واحدًا في الدار دون أبي، حملته وزينته كما أمرني من قبل وأوصاني، وأودعته فراشه الوثير، فاستراح، واسترحتُ، جئت ببعض من امام الدار، حتي جعلته أرضية جديدة، حملت مخلاتي التي لا تحوي، سوى بضع كسرات الخبز الجاف، وجرة مياه، وتلك القماشة البيضاء النقية، التي أحالها الأوغاد حمراء دمّية !، حملت كل ما تبقى لي، وانفرجت من الباب، ومن ثم أشعلت النيران فيما ورائي فتضرمت وأكلت كل شيء، وصارت نسيًا منسيًا، الله غالب .. قصدت بلدة صغيرة في الجوار، لا تبعد إلا بضعة أسابيع من السفر، تلك القرية آمن أهلها جميعًا به، فأطعمهم وسقاهم، وحفظهم من الأوغاد شريطة الطاعة، فالإله لا يطلب من عبد

إلا الطاعة، و يغدق عليه من كل الخيرات، وكان أبي تقيًا ورعًا لإلهه، هل كان ما حدث من الخيرات؟ علّه من الخيرات، فقد مِتُ وعِشتُ من جديد بجسد واحد، وروحين..

اللهفة نحو الإله المُخلِّص تملكتني، فسابقت الوقت، للحاق به قبل أن يترك القوم مارًّا في العباد يهديهم لنهجه القويم، لقد أنقذ الثكالى والمحرومين من الأهوال، وهداهم سواء السبيل، قيل في حقه الكثير والكثير من الافتراءات، البشر مخادعون، البشر ساخطون دائمًا، أي دجّال هذا الذي يُنزِل السماء مِدرارًا، ويُبزِغ الليل أنوارًا، ويرزق بغير حِساب، جاء بالخيرات، سجالات نفسي كانت تسرقني مني حين ترحالي، الطريق طويلة، وفي الطول شقاء، وفي طولِها بهجة، ففي نقطة ما في المنتهى أرى الرب نُصب عيني، الصحراوات أطلق عليها البيداوات، لأنها لا تُبقي ولا تذر، لواحة للبشر، تُهلك السابلة، وتُحيل للتكفينِ القابِلة، وما لنا من دونها سُبُل، فتقتلنا ونطأها طائعين، خاضعين، مطأطئين رؤوسنا، كنت أسير حذاء الجبل الأيمن لأحتمي من شر القيظ وحنقه، حتي يحل الليل، فأحتمي بالكهوف، حتي تطلع الشمس، في طريقي انعطف الطريق بي يمينًا فما كدت أتّبعه حتى لمحت عصابة من الرجال، يحملون السيوف، يسلبون أحد العابرين المساكين، كل ما يملك، وما هو إلا قليل، أخذوا كل ما وجدوه، ثم أجهزوا عليه بحز عنقه، فخيرًا ما فعلوا، رجل مثله يخرج يجوب البلاد ليقتات لأهله وأطفاله، وفي لحظة ما خانته الطريق، فأودت بحياته الضامة تحت جناح مهيض عائلة تنتظر لأولئك الطغاة،

ألا لعنة الله على الطريق والطغاة، تسلقت صخرتين من الجبل، لما لمحت كهفًا يهمس لي أن أختبئ وقد شجعني أن أوشكت الشمس تراود مغيبها عن نفسه، فخشيت أن يستسلم، تلك الازمان، التي صادقتنا وصادقناها اضطرارًا، أودت بالكثير من ذوي الألبابِ والنُهى، وأعطت زمام الأمور وقيادة الركب، لطائفه تهيم بالشنائع، خيم الليل العميم على الأنحاء وانطفأ وهج النهار، فلامستني نسمات باردة كنت أتوق لها، تذكرت والدي، فلم أبكِ، وكأنه لم يكن يومًا، نمتُ بمأمن، حيث لم أجد العقارب، الكهوف تحوي الكثير من الحيات والعقارب، أما الحيات فلا تلدغ أنثى أنثى مثلها، وأما العقارب، فما أمكرهم، أشرقت الشمس بإذن ربها، وأشرقتُ بإذن ربي، انتشلت مخلاتي، فحملتها على كتفي، وأكملت المسير، حينما اشتد الحرّ وبلغ أشده، رأيت شواهد قبور القرية، تلك القرية آمنة مطمئنة، لا جوع ولا فقر ولا مرض، سِرتُ من فوق الأحياء السابقين، باتجاه سُكناهم من قبل، طرقتُ البوابة فانفرجت، فُرجة صغيرة، كدت أعبرها، حتى استوقفني رجلُ، لا يشبهه أحد، كدت أخرُّ له ساجدة، بمجرد أن رأيته، قال لي أتؤمنين قلتُ بلى، جئت من أقصى الأرض إليك، وتسألني وأنت الإله العظيم؟ فابتسم ابتسامة مشرقة، ودعاني للدخول، فلما دخلت وجدت كل من بالمدينة يرتدون لباسًا واحدًا وعليهم الطيالسة، أوقفني بين يديه، وقال أعرف بإيمانك الذي يسكنك، أشعر به يطوف من حولك، يحرسكِ ويحميكِ، فأردف ولكن هذه هبة الرب إليك، ولا ترد للرب نعم! رفع يديه عاليًا وتمتم بالكثر، فبُعث أبي، تطاير رفاته حولنا ثم اقترب،

وتجمع، فصار هو كما أعرفه، قربني إليه وضمني، وقال يا ابنتي، هذا ربكِ فاعبديه، وقفت مشدوهة، هذا ليس أبي، نطقت بها نفسي فكتمتها عنهم، وأسررتها فيّ، أهدوني منزلًا، فاستأويت به منهم، وإن يريدوني بسوء، ما أفلتُ منهم ولو حرصتُ، في تلك الليلة القمراء، افترشت الأرض واتكئت على مرفقي الأيمن، ووقعت في بحر الهيام، حادثتني نفسي وحادثتها، هل هذا أبي الذي مات ناطقًا بما عاش ناطقًا به، الله غالب .. هل هذا الذي تجسد لي اليوم! لا أظنه، ولكنه يشبهه، ولكنه ليس هو؟ أجهدني السفر، وأرهقني القمر والسمر، وتدبيرات القدر وحديث نفسي، أسلمت روحي لطائر الكرى الذي جاء مُحلقًا من فوقي طالبًا إياي !..

عن الفجر، قمتُ فزعة أتصببُ عرقًا، لِمَ يأتوني في نومي، وقد آتوني في صحوي، وسلبوني الكثير، هل هذا الكثير الذي قصده أبي من قبل، ذلك تأويل قوله الذي سبق موته بأيام، كان يعلم، ولكنه عجز أن يزود عني، كما عجز الجمع الذي تجمهر يشاهدهم يدنسونني، لم يتحرك لهم ساكنًا، أو تحرك، فلا أحسبهم حتى يذكرون أن عجزهم وضعفهم أودى بالكثير لدى فتاة، فتاة لا تملك إلا ذلك الكثير لديها، ربما هو هين عند غيرها ! أتعبتني سجالات نفسي الضروس، ونمتُ مُجبرة، ولما شقشق الصبح، جمعنا الرب محذرًا إيانا إنه يقول أن اولئك العرب الملاعين الذين كنت يومًا منهم، يتناقلون فيما بينهم، أن المسيح أوشك على الظهور، استنكر الجمع كلمة المسيح، فلا مسيح إلا المُخلص، ولا رب سواه، هكذا قالوا، سمعتُ النساء يتهامسن، فسألتهن ما خطبهن، فتجرأت واحدة وقالت إن المهدي

الذي انتظره المسلمون كثيرًا بُعث، ولم يُهزم في معاركه منذ بُعث إلى الآن، فسألت وما شأننا به، فأوجمت ثم نطقت بصعوبة بالغة، إنه والمسيح خطران للغاية علينا، فهم... لم تكمل كلمتها، حتى سحبها الرب من رأسها، وما لبث أن فصلها عن جسدها، وسط ذهول الأخريات اللاتي كُن يتهامسن!
آخر ما قاله الرب تلك الليلة، أنه سيتحرك بالغد من هاهنا، إلى مأوانا الجديد، في معية الرب، بباب لُدٍ..

أُعطيت جديد الثياب، ومديد الإقامة، وعديد النعم، أكلتُ ما أكلتُ حتى امتلأ جوفي، وسُدت فجوته عن آخرها فشعرت أنني أود لو أقيء حتى تنفرج لي فُرجة أتنفس فيها، لم أشعر بهذا حتى قبل سنينا العجاف، كنتُ ابنة لأبٍ فقير، والآن أنا عبدة لربٍ قدير، ولكن أبي كان سيفتديني بروحه البائسة، ليسعدني، وأنا هنا رهن إشارة طائشة من الرب، إن قال أبقوها بقيتُ، وإن قال اقتلوها هلكتُ، مع أبي شعرت بالدفئ في كل لحظة تحادثنا فيها، كان ينصحني، ويقومني، ويلومني، حتى حينما صفعني، كان يظن أنه على حق، وأن تلك الصفعة ستقوِّم دربي الملتوي، آه من تلك الصفعة، لازالت تؤلمني إلى الآن، لولا أنني أتناسى فأنشغل عنها، الألم في داخلي، بأن كُسر الكثير فيّ، وأقامت دونها أسوار منعتني عني أبي، كانت حين طلبت منه مذ انقضاء العام الثالث أن نباشر السير نحو خلاص الرب، فأخبرني أن الدعاء درب الرب ومداومته، هو السير على الدرب، حتى تصل فتنال، أو تقضي دونه فتنال منالًا آخر، لم أفهمه ولكنني قلتُ لا أقصد يا أبي، بل نباشر السير غدًا نحو الرب الجديد،

فيسقينا، و يُطعمنا، لطمني لطمته، فأدميت لها، وقال إن شئتِ فلتفعلي إن معي ربي سيهدينِ، قمتُ تلك الصبيحة من فراشي، فتحسست الثوب الجديد الذي تركوه لي، وأخبروني أنه ثوب الخروج لباب لُدِ، فألفيته أحمرًا، ذلك اللون القميئ، طالما ارتبط بجميع مآسيّ ومُعاناتي.. ارتديته مُرغمة، ثم سِرتُ نحو ذلك البيت الكبير، الذي تجتمع فيه النسوة باكرًا لإعداد الفطور للرجال، فقمتُ ببعض الأعمال الصغيرة، هن لطيفات معي، والرجال لطفاء، ولكنني لم أستحسن نظراتهم لي، كانوا يرمقونني بتلك العين التي تفحصتني عارية، تلك العين المُعتدية .. عين الذئاب، جاء القوم للمائدة، فعقد الرب مُفتتح الجلسة، وقرأ علينا من كلامه، فلم أستشعره، ثم أخبرنا أننا سنغادر حينما تتعامد الشمس على الأرض فيشتدد قيظها، ويصعب السفر على جيش المهدي، فنسبقهم بخطوة، هكذا قال فاعترضه أحدهم أن الشمس ستأكلنا، فقال لا، فأنت باقِ هاهنا، وأخرج سيفه فحز عنقه، اندهشت .. ولم يفعل أحدهم ولا إحداهن، فنظر لي بعينه اللامعة، وعاد لحديثه، وولَّى علينا شخصًا أبغضُه يُدعى "يهوذا"، انفض المجلس وعاد الجمع يحزمون أغراضهم، وامتنعت النسوة عن التهامس بشأن الرجل الذي حُزِ منذ قليل، فامتنعتُ .. وأحسنّ حيث فعلنّ، رتّبت أغراضي وحوائجي، فقد صار لي حوائج وعدة أثواب أحملها بين أسفاري، جلست على فراشي أودعه، فخطر ليّ خاطر، أن الرب أتى بأبي يأمرني بطاعته، وأنه قتل تلك التي ذكرت المهدي وأنه قتل ذلك الذي قاطعه، فأي ربِ لا يغفر، وأي رب لا يرحم،

ولِمَ لا يأتي يومٌ فيصرعني، فتبادر إليّ أن الصفات الربوبية لا تحمل بين طياتها الرحمة والغفران، بل تحمل الرزق والعون والمدد، فالإله غفّار غفور، والربّ رزّاق شكور، والإله رحمن رحيم، والرب حافظ معين، أبي علمني هذا، وحسبت أنني لم أفهمه، فربت حينها على كتفي وأخبرني أنني سأذكره يومًا ما، فبكيتُ .. بكيتُ أبي بعد فراقه بأشهر ممتدة، هذا ربّ .. والإله أعظم من أن يكون ذا صفات ربوبية فقط! قلتُ هذا في نفسي، ولكن قسماتي أبدته، طرق بابي، وجاء من خلفه صوتٌ جهوري آمرٌ إياي بالخروج فورًا للحاق بالركب المهاجر نحو فلسطين، حملتُ حقائبي وسرتُ مشدوهة بينهن، ودّعنا ذلك الربُ عند المدخل، وعاد وحده للداخل، أمرنا أن نسير برفقة خليفته هذا حتى نصل، وسيلقانا هناك، لفحتنا موجات الحر القوية، فسقط منّا من سقط، فرفض يهوذا أن يتوقف الموكب، وكلما توقفت إحداهن للإطمئنان على أخرى نهرها، ونعتها بالكثير من الفظائع الموجعة، حتى تمتثلْ لأوامره ونواهيه، تراصّت الأفكار فيّ، وأجبرتني أن أمتثل لها، الله فاطر كل شيء، إلهًا وربًّا، لا يجوز أن ننتقص من ذاته ولا صفاته، وهذا الرب انتقص من كونه الله، كونَه إلهًا، فهو خالقٌ ناقصُ الألوهية، أخرجني عن شرودي فتاة يافعة بجواري، رأيتها تتأرجح على ظهر بغلتها، فراقبتها حتى سقطت، فقفزت إليها هرولةً، فجاءني صوت يهوذا أن امتنعي وأكملي المسير، فتركته ينبح ولم أعرِه انتباهًا، فاستشاط غضبًا وأقدم حاملًا سوطًا وكاد أن يهوي به على ظهري، لولا أن الفتاة استردت رشدها، فقمتُ

بها، فرمقني بغضب، وعاود أدراجه نحو المقدمة، أخبرتني نفسي انه كاد أن يوسعني ضربًا لأني أطبب فتاة صغيرة مسكينة أصابها القيظ الشديد بضربته الرادعة، فماذا إن سقطت امرأة عجوز؟ ثم سألتني .. وماذا إن سقطتِ أنتِ؟ أحسست أنني على خطأ، كان يقول أبي إن الله قديرٌ، ولكنه يُقدر لكل فعِل وقت، فيأتي بالنوائب ليُمحص الصالحين ويميزهم، وهو بهم عليم، ومن بعدها يأتي بالأفراح، تتلوها الأتراح، فيصبر القليل، وأولئك المحسنون، فيغدق عليهم من حيث لا يعلمون، قلتُ الله غالبُ، ومعها سمعتُ صوت ارتطامة قوية، فانتبهت لها، فإذا بالفتاة مُلقاة أرضًا خلف الركب، سقطت من جديد، نزلت إليها فاعترضني أحدهم، وجاء يهوذا فأشهر سيفه، فقتل الفتاة، ونظر إلى الدماء مفتخرًا وهو يقول، الآن أتودين لو تلحقي بها فتضمدينها! صُعقتُ فلم أشعر بنفسي إلا وقد تقدمت له وأمسكته من عنقه، وهو يحاول دفعي عنه، مانعًا أيهم من الإقتراب وهو يضحك، أراد أن يقتلني بسيفه وحيدًا، فلا يُرد له أمرُ من بعدي، ألقاني عنه بعد وقتٍ من العراك، ومن ثم رفع سيفه، شعرت حينها أنني أقترب من أبي، فتجسد لي بداخلي، أخبرني أن الله غالب، فلفظتها عاليًا الله غالبُ .. الله غالبُ، فخرّ يهوذا صريعًا إثر رمح سكن ظهره، صرخت الله غالب، فارتعب الجمع وارتبك، فهرب بعض الرجال، وبقي البعض الآخر مع النسوة، وأكملوا المسير! أكملوا كأن شيئًا لم يكن، فقدوا الكثير .. ويهوذا، وتركوني خلفهم ألعنهم، وأنعت نسائهم بأقذع الألفاظ، حتى اقترب رجل كهل وسحب رمحه وسألني ما اسمك؟

فقلتُ هدى! قُلتُ هدى وانا لا أعلم أي هدى الذي أقصده، كل شيء كان يتقلب بخُلدي، أبي صريع المرض والشرف المفقود، تُرى هل ظنّ أبي أني فقدتُ شرفي، أم كان يعلم أن المغصوبات لا يفقدن شرفًا بل يزددن، فكرتُ بربهم الذي لا يرحم، ويهوذا ذا القلب المدري، وذلك الغريب الذي لا أعرفه، سألني الرجل .. هل تتبعينه؟ فقلتُ لا، فقال ما شأنك وموكبهم إذًا، فأخبرته أنني أردتُ لو أحتمي بهم وكثرتهم من قُطاع الطرق، كذبتُ .. وشعرت بضيق حيث فعلت، قلّب الرجل حربته بثياب يهوذا، فمُحيت آثار الدماء، وتركني، ناديته .. لم يلتفت.. ركضت وراءه فأوقفني بإشارة من رمحه وقال، إنكِ لن تستطيعي معي صبرًا، فقلتُ إني قد جلدتُ على مضِّ النوازل، فما نازلتك؟ قال أجلدتي أن تكوني طعام الجائعين ممن كنتِ عن أعينهم تختفين؟ بكيتُ حينها فظنّ أنني أبكيني وحظي، فتركني ومضى في طريقه، فناديته من خلفه، جلدتُ عليها من قبل، والآن لا أقوى أن أعود إليها، فأصابه الجمود لِما قُلت، ثم عاد إليّ يسألني عمّا جرى، فقصصت عليه من كَلِم أبي، قبل أن أقص عليه ما حجبته عن الأعين والألباب، «ربِ إني مسّني الضرُ وأنتَ أرحمُ الراحمين» ثم طفقتُ من بعده أروي عليه من أمري خُبرا..

□□□

فلمّا هَلَكَ يهوذا، كُشف عني الغطاء، فرأيت أنني اتبعتُ ضالة الفئتين، أكثرهم يعرفون أنهم على غير الهدى، ولكنهم يرتضون سبيلهم الأعوج، وأنا ترفّعتُ عنه، وانفلتُ من بين عِقدهم، أذكر حينها أنك نهرتني

محاولًا إبعادي عنك، لكنني رأيت فيك رجلًا غير ذا الذي رأيته أنت في نفسك، كنتَ تظنك ضعيفًا، لن تلبث القليل حتى تنفرج عن بوتقتك الجديدة، وتعود لسابق عهدك من الفجور، ولكنك كنتَ أقوى، وهذا ما راهنت عليه مذ اللقاء الأول، دفعتني عنك تخويفًا، فتمسكتُ بك، هل تذكر طريقنا التي سلكنا، أخبرتك آنها أننا قادمون من الشمال، وأخبرتني أنت أن الجنوب لم يعد مهيأ لنا، ففيه عصابة يرجون قتلك وإيذائي، فانطلقنا هائمين فارّين، إلى وجهة غير الجنوب والشمال، أذكر ليلتنا الأولى حينما تقرحت أرجلنا من السير، فوجب أن نسكن بموطئنا حتى نستريح، وتبرأ أقدامنا، فنقدر على ما كنّا نحسنه .. التنقل، حينها وجدنا دارًا يقبع على خد نهر عذب، حينها دخلتُ أنا الدار آمنة، ونمت لما صرعني التعب، وطلبني الكرى، وأنت غِبت لتملأ الجِرار، وبعدها أتيت بالثمار، ولمّا قضيتَ واجبًا حمّلته لنفسك، عدتَ فقبعت بالجوار، لم تدخل الدار، عصمتني منك ومنعتني عنك، أرأيت الآن أنك كنتَ مخطئًا بحقك، وكنتُ صائبة الرأي، هذه الدار كانت مسكني لبضعة أيام، وكان خارجها مفترشك أيضًا، أذكر ذلك اليوم الذي عوفيت فيه من سقمي، فهيئت أغراضي وأغراضك، وعزمنا الرحيل، فلمّا خرجت من سُكناي، إلى سُكناك، قلتَ قولًا استحسنتُه، قُلتَ أنك تريدني زوجة، ربما ما كنتُ لأقبلك إن قلتها آن قتلتَ يهوذا على الرغم أني رأيت بدمه صلاحك، أما الآن فأنت قاتلت نفسك، وأشدُ الجهاد جهاد الهوى، قبلتُ .. فتهللتَ.. ولَمَا غلبني الحياء، حملتُ أغراضي وتقدمتك، فجئت

من خلفي حاملًا مخلاتك الثقيلة، أتذكر كما أذكر أننا جُبنا البلدان معًا حتى كللنا، وقابلنا الناس سويًا حتى مللنا، أحببنا المسير، وكان المسيرُ خِلًا وفيًا، فكم من قرية كان أهلوها صالحين لمّا نزلنا فيهم، ولم نستقر، وكم من دار كانت سكناها خيرًا لنا، ولم نستمر، أتذكر أول مرة سألت فيها عن اسمك، حينها صمتَّ، وبعدما خلّينا الدار قرب النهر، وصِرنا زوجين، جئتَ من خلفي قائلًا "توبة" أعلم أنك لم تكن على مُسماك، ولكنك الآن تستحقه، أتذكر أيضًا تلك الأيكة مديدة الظل، دانية الثمار، التي قابلناها، أتذكر أننا تمنينا معًا أن نبقى بظلها إلى أن نقضي معًا، لم تكن أمنية واحدة، بل اثنتين، أن نبقى بظلها واحدة، وأن نقضي معًا أخرى، العهد في الحب أن نغيب عن دُنيا الورى تلك، أتذكر لم فارقنا الشجرة، أذكر أنك لمّا خرجت تستجلب لنا القوت، كنتُ أسفلها أستظل من قيظٍ، ولم تغِب طويلًا حتى عُدتَ مهرولًا، أخبرتني أنه يجدُر بنا الرحيل، لأن عصابة من اللصوص، قاصدين قريتنا تلك، تركتني ألملم حاجياتنا، وذهبتَ لتنشر الخبر، فلم يستجب القوم، كنتَ حزينًا وقد تركنا القرية الآمنة، كنتَ حزينًا أنها لن تكون آمنة بعد اليوم، ولا قرية، ستكون مرتعًا للصوص، وقُطاع الطرق، وأولئك الذين يعيثون الفساد أينما وجدوا، كم وددت لو ترجع لهم، فتقاتلهم حيث ثقفتهم، حتى تخِر أو يخروا، وفي آونة أخرى من آونات سعدنا، سألتك عن أبيك، فلم ترد، فسألتني عن أبي فبكيتُ، لم أقوَ آنها، وقدرتُ أنك مثلي، لم تقدر، سأخبرك في مكتوبي، فعلّك حين تظفر، تأتي وتخبرني

عن أبيك، أبي لمّا ألفيته وجدته، كريمًا حكيمًا، شيخًا ورعًا، لا يطلب من الدنيا إلا كسرة خبز يسدُ بها جوف ابنته، وجرعة ماء قُربانًا للرِي، كان أكثر ما يفعله أن يقرأ و يدوّن، لم أهتم يومًا بمقروئه أو مُدوّنه، كنتُ أترفع عن كسرات الخبز وجرعات الماء، فكان ينهرني مؤدبًا إياي، أخبرني ذات يوم، أنه سيأتي على الناس أعوام عِجاف، لن يجدوا تلك الكسرات، كنتُ أسخر منه وأقول، هل تمنع الأرض يومئذ نبتها، والسماء مائها، وحتى لمّا أحرقت البيت، لم أجمع ما كتب، يومًا قصّ علي أبي أنه تلقى علمه الذي يقطن في صدره، على عين رجلٍ من سادة العلماء، شيخُ يقال له نجم الدين الكرّام، تلقى عنه العلم، الربانّي منه والدنيوي، قال لي أنه كان رجلًا واسع الأفهام، حافظ الإلهام، فسألته منذ متى تتعلم، فأخبرني أنه كان بلا علم حتى صار كهلًا، وحينها سمع بشيخه، فزاره حتى تتلمذ على يده ولخمسة عشر عامًا، قال أنه يقطن إلى الجوار، لم يختلط بالناس طوال عمره إلا لِمامًا، ولم يخالط إلا من صُنِعوا على عينيه، فكنتُ أنا وآخر يهودي، فسألته، هل كان شيخًا لليهود أيضًا؟ فقال كان منهلًا للعلم، لا يُخفي علمه عن أحد، ثم شرد قليلاً وعاد إلي قائلًا أنه سأله ذات يوم، «هلّا توصد باب علمك عن من هم دون ملتك؟ فضحك وقال، العلم بيتٌ لا يوصد بابه، وجسدُ لا يهرم شبابه، و إلا لم يكن علمًا، ثم أردف أن الملّةُ واحدة ولكنها ذات تجليات مختلفة، تناسب أزمانها، ثم سألني هل تُنكر موسى؟ قلتُ كلّا، فصمتَ هنيهة وقال .. وعيسى؟ فقلتُ أكلمة الله وكليمه أنكر؟ فقال .. أني

لك إذًا أن تمنع علمك عن أنصارهم! فكدت أعترض، فقام من مجلسه وأعطاني نسخة من كتاب لديه، كتاب ذا غطاء أسود جلدي مهترئ، لا يحوي إسمًا، وقال هذا كتابي الذي أفنيت فيه عمري، خذه وسأعيد تدوينه من جديد، فشكرت كرمه، ووعدته أن أقرأه وأعود إليه».. سألت أبي لمّا انتهى من قصته، وهل قرأته، قال نعم .. فسألته عن مُجريات جلسته مع شيخه بعد القراءة، فابتسم بألم وأخبرني أنه لمّا عاد كان قد تأخر، وأن الشيخ كان قد قضى، ولم ينهِ النسخة الجديدة، ثم سكتّ برهة وقال، أحسستُ أن الجهل لن يُرفع عن رجلٍ إلا بعلم نجم الدين الكرّام، فأبيت أن أترك النسخة الكاملة هناك ليأكلها الزمان، فتصير نسيًا، فحملتها وعُدت لهنا، عاقدًا العزم أن أنشر علمه، فسألته وماذا بعد يا أبي؟، فأخبرني أنه سار على عهده حتى قضى الله بشأنه أمرًا يعلم حكمته، فلزم فراشه، هذا كان من أمر أبي، علّك تعود فأظفر بما تقصّه لي عن أبيك، أدعو الله ليل نهار أن يسامحني عمّا اقترفت بحق أبي حين كان حيًا وعمّا أجرمته بحقه وعلمه حين أمسى بين يدي الله، كان طوال عمره لا يقرأ إلا القرآن أو «كتاب النبّي» لشيخه نجم الدين الكرّام، علمتُ من أهل القرية هنا، أن الشيخ نجم الدين هذا عاش بينهم لفترة قصيرة قبل أن يزهد في دنياه وينقطع، أخبروني عن كراماته وقراباته، وأنه كان ملاذًا للضائعين، وسبيلًا لوصولهم، لا أعلم لِم أكتب إليك، ولِم أنتظر حتى تعود، ولكني أعلم أن ما ألقيته من قلبي وعقلي على ذلك المكتوب، سيبقيك «توبة» إلى أن تعود، وبعدما تعود أيضًا، وأنت هناك

بين الرجال، وأنت هناك تحارب كتفًا لكتف مع المسيح، اختر لنا من بين الصالحين شيخًا كنجم الدين، يذكرنا عند ربنا فتُحالفنا النجاة في الدنيا والآخرة، واجعل دعائك إلى أن يجمع الله بيننا من جديد، «اللهم إلى هدى ائتني، اللهم إلى هدى ائتني».

❒❒❒

توبة

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾
[الشورى: ٢٥]

لم تقل يا سيدي أنها الآن امرأة بلا شرف، فالمغصوبات لا يفقدن شرفهن، بل مُزددنه، لم تتمنَ أن تكون نسيًا منسيًا، إثر جُرم تعرضت له، جُرم لم ترتكبه، وخطيئة لم تُقبِل عليها، طالما أردت أن أفعل ما فعلتْ هي، ولم أستطع، عجزتُ أن أئِد داري العجوز ثم أضع الزهور على قبرهِا مُتطهرًا، وأهيم في الأرض باحثًا عني، فأنا إن بقيتُ سأظل الذي لا يريد بقاءه، ولكنها جاءت، فامتثلتُ لها، خرجنا معًا حتى فِراق، أسبلتْ عليّ من خيراتها .. وفي الإسبال جود، ثم رحلتْ .. وفي الرحيل جمود، ولكنني بقيت كما أرادت لي أن أبقى، وتركتُ ملةَ قومي ونهجهم المشؤوم، كنتُ قبلها بالكثير من الأعوام أصاحب جماعة كبيرة من الأقوياء .. معدومي التدين، فما لرجل داق قلبه بالله وله، ليقضي قضائهم، وما كان ربك نسيًّا، تلك كلمة علمتنيها، خرجتُ وجماعتي لنصنع ما نصنعه كل ليلة، نبدأ اليوم حين يهطل الليل، فينسحب النور، وتكون كلمتنا هي العُليا، كانت

ليلتي الأولى معهم، بعدما قاتل الفقر أهلي حتى القبر، فأبيت أن أخضع خضوعهم، كانوا يهزأون بيّ، ينعتوني دائمًا بالمدلل، و إن هذا لأمرُ جلل كما عرفوه، فضاق صدري بحديثهم، أصبح الذي يشغلني أن أجاوزهم في سوءهم وأزداد سوءًا على سوء، فأكتسب بينهم احترامًا، لا تعجب يا سيدي .. فالإحترام يُقاس بما تُقدم، وقيمة ما تُقدِم تُقدر بحاجتهم إليه، فإن قدمت قوت يومٍ فأنت متراخ، و إن قدمت قوت شهر فأنت مجتهد، و إن قدمت لهم فتاةً، فيالك من بطلٍ مقدام، النساء كُن أكثر ما تحتاجه الجماعة، في تلك الليلة خرجت منفردًا عنهم، وغِبت طويلًا، بحثتُ كثيرًا فلم أجد ما أعود به، وكلما طال غيابي ازداد العبء على كاهلي، إذ ينتظرون مني الأعظم، آويت لأيكة ولودِ الأشجان حرورًا، فغالبني النعاسُ حتى غلبة، ولما استيقظت وجدتُ فتاة وأمها تقفان إلى رأسي فنزعت سيفي .. فبكتا .. وقالت الأم ما جئنا لنفسد في الأرض، فقالت لي نفسي، ولكنني جئت لأفسد فيها، بل وأعيثه من أقصى الأرض إلى أقصاها، انتزعني طلبها من شرودي، حينما طلبت أن أقودهما إلى موطن آمن، تقضيان فيه الليلة، فقبلتُ .. أخذتهما إلى الموطن الأكثر أمنًا في المنطقة، موطني! في طريقنا، قالت لي الفتاة أن والدها يعاني من سقم لا يعلمونه، يشبه الحمى في أعراضه ولكنه أكثر قوة، وأشد وطأة، وهما يبحثان له عن علاج، فقلتُ سأتفقد لهما خزانة الدواء حين نصل، قابلتنا قافلة فاستوقفاها، تملكني الغضب إلا أنني أخفيته كيلا ألقَ حتفي، قالت الأم أنهما ستعودان مع تلك القافلة، وقالت الفتاة بل دواء أبي، فقلتُ بمكرٍ، هل لتلك القافلة

أن تنتظرني، إن ذهبت وجئتكما بالدواء؟ فأجابني شيخ منهم، أنهم لن ينتظروا، فقلتُ إذًا اذهبا، وليقضِ الله أمرًا كان مفعولًا بشأن الأب، فانهمرت الدمعات من الفتاة وتاهت في وصلة من النشيج، حنّ لها قلب الأم، وأخبرتني أنهما ستعودان معي، ابتهجتُ وآثرت الصمت، ولمّا جنى الليل، آوينا لِشق رأيته في جبل، ولما طلع الصبح أكملنا، لم أشعر آنها أنني أخطأت حتى لم أمس الفتاة ولا أمها، فقط جئت بهما، ولم تُقتل أبيهما، بل عادتا إلى حيث جاءتا، وصلنا قبل الغروب للموطن، فاستقبلني الرجال بالتحية، ولكنهم سرعان ما انصرفوا عني جميعًا لاهين بفريستيّ اليوم، صراخ الفتاة أزعجني ونحيب الأم، خرجتُ من الدار، حينما اخترقتني نظرة ثاقبة من الفتاة، رأيتها لاحقًا في عين يهوذا حينما قتلته، وعين هدى حين أخبرتنا أنها إن جاءت ستلقى نفس المصير، خرجت من الدار هاربًا من نظرات الذبيحتين وصراخهما، وقتئذٍ تسيّد الليل السلطان، فلجأت لبحيرة، لطالما عدتها فأوفتني بما جئت طالبًا، وحاكيتها فسمعتني بما جئت معاتبًا، البحيرات والصحراوات فقط يخرجن النفس عن صمتها، فيجبنك بلسانك، وتسمع لهن بفؤادك، قضيت ساعات طِوال، أجود بالدمعات، لا أعرف لِم بكيت، ولكنني فعلت، خِفت أن يشعر أحدهم بغيابي، فغمرت وجهي بماء البحيرة، فبُعِث أَلِقًا وعدت لمهد ذنوبي، فوجدت الفتاة على أعتاب البيت تتلفت يمينًا ويسارًا، ولما رأتني أقبل عليّ، وتفوهت بقلب مُنكسر، كانت لا تأبه لكونها عارية أمام غريب، فإن عبث الغريب بها لن يزيدها جراحًا، ولن يقتلها مرتين، قالت .. أرجوك .. فتِش لي عن

دواء أبي، غلبني الصمت، حاولت أن أنطق فلم يطعني لساني، فانصعت له وسكتُ، خرجت الأم من خلفها، كانت أكثر جمودًا، أسدلت ثوبها، وغطت عورة ابنتها، وابتعدتا، وقفت موليًا إليها ظهري، ولكنني شعرت بنظرات الفتاة، شعرت بها ترمقني مستجدية أن أجد لها دواء أبيها، حاولت الأم أن تردها عن تلك النظرات، ولكنها لم ترتدع، بكيتُ من جديد، وصرخت في نفسي، يا ليتني أحمل مطلبها، خرج أحدهم منتشيًا يترنح، فأبصر دمعي، فنهرني قائلًا، هن خُلقن لنا، فعلى ما تبتئس، قلتُ موجِزًا أنني تذكرتُ مرض أبي، لم أخبرك يا سيدي أن أبي كان مريضًا بالحمى ومات بها، ولم أجد له ما يُبرئه، خرج الجمع نحوي فأحسنوا إليّ، وأثنوا عليّ، ولم يشغلني الأمر، لم يشغلني الأمر الوحيد الذي طلبته، وفعلت كل شيء لأجله، لم أعد أمامهم مدللًا، ولكنني صرت منهم، وهم خنازير لا يفقهون، أقرّ كبيرنا أن الليلة بلا خروج، وأننا سنبيت ليلة هانئة، بعد غروب مُبهج، فآوينا للدار ونام الكل، وبقيتُ أفكر، إن كنتُ أعطيت الفتاة دواء أبيها، هل كانت لتنسَ ما حلّ بها وأمها، فصرخ صوت داخلي، وما حلّ بها؟ تجاهلته وعدتُ أتسائل، ولم أجد جواب، فأغمضت عيني طالبًا النوم، فرفضني، ولكنني ألححتُ، فنلتُ ..

في صبيحة اليوم التالي، دعاني كبيرنا لمجلسه، فلما أقبلت عليه، تبسّم قائلًا .. صيد ثمين، فأوجمتُ ولكنني سرعان ما بدلتُ قسماتي، فلم أبدِ شيئًا، أيعد الإعتداء صيدًا، عنّفتني نفسي بأنك من فعل، فلا تردن الخبث على غيرك، أرغمتني أن أصمت، فأردف الكبير، أنني مُكلف بالنساء فقط، فلا

أسرق ولا أنهب، ولا أقتل، فقط بين الفينة والأخرى آتي لهم بالشاردات التائهات، فيقومون سيرهنّ، لم أظهر الضيق الذي اعتراني، وانصرفت اضطرارًا، خرجتُ إلى جُبِ قريب أستسقيه، أدليت دلّوي فغاب عن ناظرّي بين ثنايا الظلمات الحائرات، فنظرتُ في نفسي، فوجدتها أحلك وأشد ظُلمًا، كنتُ أعرف قصة طالما أُلقيت عليّ في صغري، أنه كان في قديم الأزل نبيٌّ، غار منه أخوته أن يحوز حبَ أبيهم وحده، فمكروا به وألقوه بعيدًا، شاردًا في البيداء، كيّما يلاحقه الموت، فاهتدى الشريدُ لجبلِ ظنّه ملاذًا، فاحتمى به، ولما هجم الليل، كان بعض السيّارة يهيمون في الأرض باحثين عن التجارة، فصارعهم التعب، فأقر كبيرهم أن يلجؤوا لكهف، يستأوون به على ظلام الليل، وشر وحوشه، فلما دخلوا الكهف وجدوا الصبي قابعًا يعتريه الخوف، فأخذوه وترعرع بينهم حتى وليّ عليهم بعلمه وصلاحه، فنظرت في نفسي من جديد فوجدتها دامسة السواد، أنّى لقلبي أن يُستضاء، فأبيت في أحلك الجحور بنوري، غير عابئ بما حولي، ولكن أنّى يستنير فؤادي، وأنا السارق المُعتدي، علمتُ أن هذا النبي اسمه يوسف، فدعوتُ الله أن يُحيلني يوسف . ويجعل لي من الكُربات كرامات ترفعها، ويقدر لي كما قدر للنبيّ !

حملتُ الماء، وآثرت الرجوع إلى الدار قبل أن يهم القوم بالرحيل، رجعتُ إليهم فاستقوا استسقائي، فخلوت بكبيرنا عن أعين البقية، وأخبرته أننا يجب ألا نستمر في صنيعنا، وأن الله سيقبلنا مع الصالحين في جيش المهدي الذي ظهر، فضحك منيّ، ربت علي كتفي، وهمّ إلى الباب، وسرعان ما

استدار قائلًا، إن عدُت لمثل قولك، فما لك منّا أمانٌ وما لنا عنك صدودٌ، قستْ عليّ الحياة يا سيدي، فلما ظننتُ أن الجُرم لا يفيد، خطر لي خاطر، أنني لو تركت تلك العصابة، لزاد فسادهم، وربما تقوى شوكتهم، فيعيثون شر الفساد، وأني لو أجهزت عليهم، اكتسبت إثمًا جديدًا لا طاقة لي بحمله، فدعوت الله، ورجوته إلهامه، فحدثتني نفسي أن عُد لرشدك، وحدثني صوت فيّ أن هاجر، فاستحسنت القول، علمت فيما بعدُ أن التوبة لا تُبنى إلا بأرض بتول، لم يُردها إنس ولا جان، ولا يقوى بنيانها بين الخبائث، فانتظرتُ حتى الليل، فطلبني الكبير، فلما أتيته .. أخبرني أني سآتي بالنسوة غدًا، و إلا يكون خروجًا عن القطيع، أومأت .. وعدتُ إلى مخلاتي، حتى غادر الجمع، فلملمت حاجياتي وانصرفت تاركًا خلفي آثامي، مستبشرًا بما سيأتي، الليل في الصحراء قاتلٌ ماكر، إلا إن كان فريسته قاطعُ طريق .. فلا تغلب كفّته، آثرت السير طوال الليل، حتى أبتعد، وكلما ابتعدتُ أردت الاستزادة، رأيت نورَ يوسف في الأفق، فتبعته حتى كلّلتُ .. جلستُ أرقبُ نورَ الله، وهو يزيحُ عن البريّةِ غبرَ الليلِ البهيمِ وغيمتَه، فتصحو الكائناتُ ساعيةً، وتُغرد الطيورُ شاديةً، كنتُ في غفلة عمّا خلق الله فأفقتُ، وارتاحت بصيرتي، صرعني الكرى لجوارِ شجرةٍ دانية، فأسلمت لله روحي .. واسترحتُ .

صحوت عند الظهيرة لمّا اشتد الحرُ عليّ، ثم اتجهت غربًا إلى غير وجهة، كنت أهيم في الأرض علّي أجد منزلًا يتسع لكلي، فإن كنتُ وجدته يا سيدي لما برحته إلى أن أقضي متعبدًا، في تلك الأيام كنت شريدًا وسط

زخم الذنوب التي مضت، فما إن ذهب أوانها وانقضى إلا أنها ذكرى سيئة لم أفتئ أذكرها حتى تنكأ فؤادي المكلوم، انتبهت لظمئي، فمددتُ يدي إلى مخلاتي، فلم أجد الحاوية، فعاودت السير جنوبًا، علّي أصادف نهرًا فأرتوي منه حتى امتلئ، مرّ يوم وانتصف الثاني، حتى وجدت بحيرة صغيرة صافٍ ماؤها، فاغترفت منها ما قتل ظمأي، ثم جلستُ في الجوار وجال بخاطري أن الله سخّر كل شيء في مُلكه لعباده، لأنه يعلم ضعفهم وقلة حيلتهم، الله يرزقنا ونحن عنه غافلون، أثناء قعودي والنهر، مرّ رجلٌ يبدو رسولًا، دعوته.. فانتبه وأقبل وأخبرني أن في آخر طريقي نحو الجنوب، كل ما أردته، أخبرني أن الرب جاء إلينا ليأمر الأرض فتُخرج من نبتها، ويزعق في السماء، فتؤتي ماءها، قلتُ آلرب يقطن فيكم؟ فأومأ وأردف، بل كُلنا رعاياه نقطن فيه هناك، نحتكم بأمره ولا مردَّ لكلمته، ولمّا ذهب عقدتُ العزم أن أطأ أراضيهم فأنظر أنّى يعيشون! في طريقي وجدت أرنبًا يركض بلا وجهة، فكان فريسة سهلة، أوقع به تشتته، أخرجت رمحي وقذفته فاخترقه، فسِرتُ نحوه، وسحبت الرمح، ثم التقفت الفريسة وآويت بها إلى جحر قريب، فأضرمت النيران وجهزت الأرنب للشواء، فاحت رائحته الزكية، فخرجت الفئران تبحث عن طعامها فألقيت لهم قطعة أسكتتهم، حتى أنهيت وجبتي فأطفأت النار وخرجت من الجحر وقد عمّ الليل الأنحاء، خرجتُ باحثًا عن رقعة تستضيفني للصباح، شعرتُ بأن أحدهم يتبعني، أمسكت سكينًا صغيرًا كان في جيبي وتروّيت في سيري، فعلا صوت الخطوات من خلفي، التفت

نحو الصوت، حتى استقبلت لكمة مُعمرة، حاولت ردها .. فاستقبلت أخرى، كانوا كُثر، وكأنهم يقاتلون أعمى يرونه ولا يُبصرهم، تظاهرت بأنني وهنت، وسقطت أرضًا، ولم أتخلَ عن سكيني، اقترب القوم، فكانوا عصابتي، جاءوا من أجلي، كانوا ثلاثة من الأقوياء، اقتربوا رويدًا فقمتُ مندفعًا مُفاجئًا إثنين منهم بطعنتين قاتلتين، والأخير أبقيت عليه حيًا، بعض الطعنات للتهذيب، حتى أخبرني بمهمتهم، وبعدها تركته وحيدًا يطبب جراحه بالبيداء ورحلت، كيف تتبعوك؟ صوت في داخلي قالها، يبدو أنني سيء بالتخفي، أو ربما وجدوا حاويتي، فأكملوا المسير .. أو تتبعوا آثار أقدامي، أمر الله .. قادتهم أرجلهم إلى حتفهم، يومٌ آخر من السير، بعد ليلة مليئة بالقلق والأرق، ألفيت كوخًا مهجورًا كان فوق تلة كبيرة تكشفُ ما بأسفلها، الكوخ وقر فيّ فوقرته بضع شهور، لم أفارقه فيهنّ إلا لِمامًا، فتارة أخرج أجيء بمطعمي، وتارة يغلبني الظمأ فأملأ حاوياتي وأعود، في بادئ الأيام، كنتُ غريبًا على نفسي، لا أعرف من أكون، هل أنا الذي كان قبل موتِ الأحبة ؟! أم أنه تحوّل لذلك المُدلل، ثم ليث مُفترس، خانتني نفسي وقالت ليث .. الليث مُفترس شجاع لا يمكر ولا يخادع، أما أنا فقد كُنت إلى الثعلب أدنى، كنتُ ثعبان لا ينتقص من الفريسة شيء، فقط يملؤها بسمّه ويغادر، حتى إذا رجع إليها لم يجد ما يُغضبه، فما الذي يُغضب بجُثة هامدة، أتدري يا شيخي ذات يوم سألتني عن أبي، فامتعضتُ، فدنت إليّ وقالت أن الأبُ لا يستحقُ منك هذا الجمود وقلبه، لم تتبين منيّ، ولم أرد أن أخبرها، فكيف لها أن تأمن على نفسها

معي إن علمت من أمره، حسنًا فعلتَ أن أثنيتني عن هذا، أبي كان رجلًا صالحًا، كان يعولنا حتى كلّ، فتحامل على ما به ولم يمل، فأصابته حمى حامية، فرانت بيننا وبينه، كان دواؤه لدى قومٍ لا يعرفون الرحمة، هم إلى المسوخ أقرب، حملتُ أبي على ظهري، حتى وطأت أراضيهم، فظهر لي أحدهم، نظر إلينا، ثم اقترب وقال اغرب ولا تعُد، حاولت أن أستجدي رحمته، فأبي وولّانا ظهره، فتركت أبي مُستندًا إلى الأرض وركضتُ نحو الرجل، فخرج من خلفه رماة، كادوا أن يفتكوا بيّ، فدعاني أبي، فعُدت إليه، فقال الله يبسط الرزق ويقدرى! حملته ورجعت خائب المقصد والرجاء، أرهقه السفر ووعثاؤه، فلزم الفراش دون دواء ولا طعام، فلم أعلم هل قضى جائعًا أم قضى محمومًا، فاستحلتُ من بعده، ولمّا رأيت الفتاة وأمها بزغ فيّ فجر جديد فهربتُ .. آويت لهذا الكوخ يعصمني، قضيت به الشهور الأولى انتدب حالي، حتى برق في أفُقي خاطر، أن الله يبسط الرزق ويقدر، الله قدّر لي أموري وسيّر أحوالي، حتى أرادني .. فقدر لي ما يصدّني عنهم، ويردّني إليه، فحدثتني نفسي، ولكنك قتلت .. فقلتُ استغفرِ ربكِ إنه كان غفارًا، يرسل السماء عليكِ مدرارًا، فاستغفرت، وتُبتُ إليه بصبيحة ناصعة، خرجتُ أستقي الماء، فلم أجرعه مذ أيام، عند حافة التلّة أبصرتُ موكبًا كبيرًا أكثره من النساء، قادمًا من أصبهان، في بادئ الأمر خِفتُ فتخبأتُ عن الأنظار وتابعت الموكب في صمت، فعلا صوتٌ من نهايته يستغيث، فنزل قائدهم بسوط وكاد أن يهوي به على ظهر فتاة منهم، لأنها توقفت لسقوط أخرى، قامت الفتاتان

وعاد الموكب لسيره من جديد، فنزلتُ عن التلة متتبعًا الموكب عليّ أكون معهم، سقطت الفتاة من جديد، وتبعتها تلك التي طببتها أولًا فجاء السيدُ من المقدمة، فاحتدم الجدال بينهم، كنتُ أقترب رويدً رويدًا، وما إن رفع ذلك الرجل سيفه، فألقيته بالرمح فشقَّ ظهره، رمقني كل من في الموكب، حتى زعق فيهم واحدٌ منهم، فانساقوا وراءه إلى وجهتهم، وكذلك الفتاة كانت ترمقني، حتى أوليتها ظهري وانصرفت .

❑❑❑

كُنّا قلبين، يهفو كلٌ منهما لإلفه، فيسكنه ويحويه، جمعنا الحقُ، وفرّقنا حُبُه وإيثارُه، لمّا مرّ عام ويزيد، وانقضت السنون الضائعات، وبُعث المسيحُ، فانضم لجيش المهدي، وسارا سويًا مع جيشهما نحو المناص، فانتزعوه معًا من أعين الكافرين، وقتل مسيحُ الحقِ مسيحَ الباطلِ بسيف الله، وفرحَ المؤمنون، كنت بينهم، كنت بين أظهرهم، أزود عن ديني، وأقاتل أمام تلك الفئة الكافرة من أصحاب الطيالسة، ولمّا احتدمت الحرب قُتل الدجّال، فخمدت شُعلتها، صليتُ وراء الإمام عيسى، فجاء رسول برسائل للجنود من ذويهم، حتى دعاني باسمي، فانتضفت وتملكني الخدر، أخذتُ المكتوب ولم أقرأه، عُدت أبشرها بنصر الله، بعدما حملت لها من غنائم المعمعة، اجتزت الصحراء بلا جُهد، رغم ما بُذل في الحرب، كان التوق يحملني على جناحيه، فيرفع عني كل سقم، ويصد عني كل ألم، اشتقتها .. وددتُ لو أقصّ عليها، كيف ذاب الدجّال حينما رأى نبيّ الله عيسى، تُرى هل علمتْ؟ أم طالتها أيديهم النجسة قبل أن يردها الخبر؟ هل كان

قتلها رحيمًا؟ تسائلت يا شيخي، كدتُ أجن لمّا دخلت الدار، فوجدتها مُخضبة بلونها الذي تبغضه، كانت الدار مسلوبة الخيرات، ونعم الخيرات هي، لو أخذوا كل شيء وتركوها ما حزنتُ يا مولاي، قلتُ أن الله غالب فهدأ روعي وسكن فؤادي بكلمة الله، كنتُ قد قطعت لها وعدًا، أخذت أؤجله فينةً تلو الأخرى حتى ذهبتْ وبقيتُ أؤجله، فمالي لا أنهي واجبي تجاهها، حملتُ كل ما يذكرني بها وسِرتُ نحو القوم المنتصرين، عِشتُ بينهم من الأعوام سبعة، ولم أنسها يومًا، ولا غابت عن خاطري لوهلة، السنون التي مضت كُنّ جوّادات على الناس إلاي، مُعطيات من فضل الله، وأنا مُمسك لا أقبل إلا ما يدفع عني الموت، حملني الضعف وهاف جسدي، فبات رمحي ثقيلًا عليّ، وبِتُ لا أقوى على شيء إلا قراءة أخر ما كتبته لي، فيغلبني الحزن ويشتد بكائي من جديد، فيا لمكتوب الحرب من سلاح بتّار للروح والفؤاد، في نهاية السنة السابعة، تزاحمت الأسئلة في عقلي، فشاب قبل أوانه، سألتُني .. تُرى هل وجدت الفتاة دواء أبيها؟ و إن فعلت هل برأ الأب؟ لم أعلم إلى الآن يا سيدي، لِم لم أنسَ الفتاة يومًا، حُفرت قسماتها في ذاكرتي وهي مُرتعشة، زريّة الهيئة تقول أين الدواء ؟! أترى يا شيخي أن ما حدث لها كان بما فعلت بالفتاة وأمِها؟ ولكنني لم أقتلّهما .. فلِم قُتلت، الله غالب.. أجبتُ بها على جميع دار بخُلدي، فانقشع عني وتركني لأهنأ ولو بقليل عيشي، أذَّن مؤذن حينها بين الخلائق أن نبي الله جاءه الوحي، أن هاجروا إلى جبل الطور يعصمكم عن عباد سيفتح الله بيننا وبينهم سدّه، فيعيثون في الأرض فسادًا، فأمرالنبيّ القوم فاستعدوا، حاز كلٌّ منًّا

معوزه وانطلقنا من فورنا، كُنا نسيرُ فنصل رحم الليل بالنهار، لم يأمرنا النبيّ بالتوقف إلا لمامًا، فشقّ الأمر على البعض فهلكَ، وشقَّ على آخرين فآووا إلى كهف يستظلون به من القيظ وشر ما فيه، وطأت أقدامنا الطور، فأمر النبيّ الرماة أن يترّاصوا على سفح الجبل ويتربصوا، فما إن دقّنا الخطرُ وبابَنا، كانوا أول من يزود ويدفع، استقر الوضع لي وكِدت أهنأ، لولا أني تذكرت عهدي لها، فضاقت عليّ الدنيا بما رحبت، وقلتُ عسى الله يحدث بعد ذلك أمرًا، وسكتُ .. وفي يوم جاءت جلبة من عند الرماة، فهب القوم إليهم، فرأيتك ورفيق سفرك، تصعدان الجبل، ورأيت الأيادي تمتد إليك مبسوطة تُساعد، فقلتُ في نفسي الله بصيرٌ بعباده، ولكنك مرضتُ بعدها وتملكتك الحمى، فخِفتُ أن تسبقني إليها دون أن أُتم وعدي، فدخلتُ معهم لأطمئن عليك، ومن بعدها أقصّ على مسامعك ما جرى من أمري وأمرها وأمر الأمر فتدعو لنا، عسى أن تنال بدعوتك الرحمات، وعلّي أنال مثلها، كان مطلبها رجلٌ صالح يذكرها عند ربها ويذكرني، فكنتَ نورًا وكانتْ هدى وكنتُ توبة وكان رابعًا لم تحِن ساعته بعد!

محمد صلاح فضل

٥-نوفمبر-٢٠١٥

٢:٣٨ ص

تمت